مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ النَّجم

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة النّجم

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة النجم

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ
﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ
قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ
﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ
﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾

يفتتح الله تبارك وتعالى سورة النجم بالقسم الذي يثبت به أن محمداً رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنه ما زاق ولا حاد ولا خالف طريق الهداية والرشاد الذي كلفه الله تعالى به. بل هو على كمال الاستقامة والسداد، وما نطق ولا تفوه بشيء من هوى في نفسه، بل بما أوحاه الله تعالى به عليه. فقال الله تعالى مُقسِماً بالنجم عند سقوطه في الأفق وقت إدبار الليل، وإقبال النهار ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قسم من الله تعالى بالنجم حين يهوي ساقطاً من عليائه في السماء. وهو الكوكب الذي يظهر للناظرين إليه في السماء. والمراد به جنس النجم، بما يشمل جميع الكواكب. وقال بعض أهل العلم أن المقصود به هو نجم الثريا حين سقوطها مع طلوع الفجر. قال مجاهد رحمه الله تعالى: إذا سقطت الثريا مع الفجر، أي: نجم الثريا[١] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وكذا روي عن ابن عباس، وسفيان والثوري[٢] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: التعريف للجنس، والمراد جنس النجوم، وبه قال جماعة من المفسرين[٣] وقال السعدي رحمه الله تعالى. والصحيح أن النجم اسم جنس، شامل للنجوم كلها[٤] ولخصها ابن الجوزي رحمه الله تعالى في خمسة أقوال: أحدها: الثريا. والثاني:

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٢٢)
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢٦٤)
(٣) الشوكاني، فتح القدير (٥/١٠٤)
(٤) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/١٢١)

الرُّجُوم من النجوم، يعني ما يُرمَى به الشياطين. والثالث: أنه القرآن الكريم، نزل نجوماً متفرقة. عن ابن عباس، وعن مجاهد. والرابع: نجوم السماء كلها، مروي عن مجاهد أيضاً. والخامس: أنها الزهرة، قاله السدي[١] وهذه الدلالات لا تعارض بينها، بل هو مما استوعبته دلالة النجم، ومعانيه. وهي شاملة للعموم مع دخول الخاص فيه.

ومن دلائل ذلك ما ذكره أيضاً ابن الجوزي رحمه الله تعالى في تحليله لتلك الأقوال. فعلى قول من قال: النجم، هو: الثريا، يكون ﴿ هَوَىٰ ﴾ بمعنى غاب. ومن قال هو: الرجوم يكون هَوِيُّها في رمي الشياطين. ومن قال: القرآن. يكون معنى ﴿ هَوَىٰ ﴾ نزل. ومن قال: نجوم السماء كلها، ففيه قولان: أحدهما: أن هويها أن تغيب، والثاني: أن تنتشر يوم القيامة[٢] وبالتالي لكل دلالة حقيقتها، مما يبين عظيم أوجه دلالات القرآن العظيم، والتي تستوفي جميع المعاني والمقاصد بسياق واحد، وهذا من الإعجاز البلاغي لتراكيب ألفاظ القرآن واختيارات ربنا تبارك وتعالى لكلامه من الألفاظ ما يستوعب به كمال المراد من غير تعارض ولا تناقض.

وفي القسم بالنجم حين يهوي أو حال انطفاء نوره بعد ثبوته وعلوه ورسوخه، ما يلفت انتباه العباد إلى هيئة النجم وقوة لمعان نوره، وجماله، وعلوه، ومع ذلك فمنه من هوى، ومنه من انطفأ بقدرة الله تعالى، وسقط عند نهاية المطلوب منه. وكذلك الإنسان ينتهي عند حلول أجله. ثم في الليلة التالية يعود هذا النجم كما كان، من غير أن ينقص منه شيء بالرغم من سقوطه في مكان سحيق، وانطفاء نور بعضه. وذلك بقدرة الله تعالى. وكذلك يبعث ويُعيد الله تعالى الإنسان بقوة قدرته كما كان قبل موته وفنائه، من غير أن ينقص منه شيء البتة، كما هو حال النجم. فهو استشهاد يمتلئ قوة وإقناعاً لكل عاقل يقبل الحق ويأخذ به.

ثم يذكر تبارك وتعالى جواب القسم، الذي هو الْمُقسَم عليه، فقال تعالى ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ ما حاد ولا زاغ رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم عن الحق والرشاد الذي كلفه الله تعالى بإبلاغه للعباد. بما يفيد كمال التزكية للرسول صلى الله عليه وسلم، مع تقرير صدق ما جاء به إلى الناس. ومن قوة بلاغة التزكية هو النفي مرتين: النفي الأول: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ والنفي الثانية: ﴿ وَمَا غَوَىٰ ﴾ والغواية ضد الرشد. وتسميته صلى الله عليه وسلم بأنه ﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ لتعطي كمال المعرفة منهم له عليه الصلاة والسلام.

فقد تصدر النفي بقوله تعالى ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ والضلال هو عدم الاهتداء إلى الطريق المراد قصده. فنفى الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون قد سلك مسلكاً خاطئاً، ليفيد كمال نفي أوجه

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢٢٦-٢٢٧)

(٢) المرجع السابق (٧/٢٢٧)

الضلالة، وفروعه، أو أي شيء منه. بما يفيد الشهادة له صلى الله عليه وسلم من ربه تبارك وتعالى بأنه سلك الطريق الحق الذي جاءه من ربه عَزَّ وجل، من غير أدنى عِوج. ليدل على كمال الصفاء والوفاء في الهدى الذي يدعو إليه عليه الصلاة والسلام.

ثم وصفه سبحانه وتعالى بأدق المعرفة به من قومه، فسماه ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ والصحبة تفيد كمال المعرفة منهم له عليه الصلاة والسلام، كما تفيد الملازمة منهم له عليه الصلاة والسلام. بما يفيد أنكم تعرفونه تمام المعرفة بجميع أحواله، فتدركون كمال عقله، وكمال أخلاقه، وأمانته، ونزاهته عن العيوب والمعاصي التي يقع فيها الناس. وبالتالي يكون اتهامكم له بالجنون والسحر والكهانة هي اتهامات باطلة بشهادة معرفتكم له، بناء على ما كان بينكم من الصحبة.

ثم أكد سبحانه وتعالى ما سبق بنفي الغواية عنه صلى الله عليه وسلم. فقال سبحانه وتعالى ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ والغواية ضد الرشد، وهو الجهل. بما ينفي عنه عليه الصلاة والسلام أضداد الرشد كلها. فلم يتكلم بباطل، ولا عن شيء بجهل، وما عدل عن الحق، ولا خاب فيما طلب. وبالتالي فإن كلامه ودعوته عن علم دقيق من الله العليم سبحانه وتعالى. وفي هذا كمال التزكية للرسول صلى الله عليه وسلم من ربه عَزَّ في علاه. فهي تزكية من كل وجه، فأثبت الله تعالى له صلى الله عليه وسلم كمال الوصف وأعظمه وأجله. وهو ما أثبتته سيرته عليه الصلاة والسلام التي توافقت مع تزكية الله تعالى له عليه أفضل الصلاة والسلام.

ثم تزداد التزكية من الله تعالى إلى رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ وما يتكلم نبينا محمد بباعث الهوى، من ميول النفس، وأهوائها. بل بما يقتضي الحق الذي ينزل عليه من ربه تبارك وتعالى. مما يُثبت أن منطوقه صلى الله عليه وسلم بوحي من ربه جَلَّ جلاله، وبالتالي فإن القرآن العظيم، وما يتبعه من السنة النبوية المطهرة هما وحي من الله تعالى، خالية من حظوظ النفس، وشهواتها.

وانطلق البيان بحرف ﴿وَمَا﴾ الذي نفى أن ينطق عن هوى نفسه صلى الله عليه وسلم. ثم أورد النطق بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ الذي أفاد تزكية منطوقه صلى الله عليه وسلم عما كان منه، وفيما هو حاضر، وما سيكون عليه في المستقبل، والذي أفاد الاستمرار في الصدق وعدم الانقطاع فيما يُوحَى إليه صلى الله عليه وسلم. بإن ليس ذلك نابع عن هواه عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ والهوى هو ما يمثل رغبات النفس وميولها نحو ما تريد وتحب أن يكون. وفي نفي النطق عن الهوى ما يفيد

الجزم القاطع بأنه ما تكلم أو يتكلم أو سيتكلم عليه الصلاة والسلام بشيء من الهوى، وإنما هو وحي من ربه سبحانه وتعالى، وليس عن هواه، فلم يخرج عما أوحى به إليه من ربه عَزَّ في علاه. فنفى التفوه بجنس الكلام عموماً. فلا يخرج كلامه فيما يقوله لكم إلا بوحي من ربه تبارك وتعالى. وفي هذا غاية التزكية، ومنتهى المدح والثناء على أمانته صلى الله عليه وسلم. كما أن في تنزيه الأقوال اقتضاء تنزيه الأفعال بمثل ذلك. بما يفيد أن كلامه وأفعاله عليه الصلاة والسلام هي كمال الصواب والحكمة. وأن سيرته عليه الصلاة والسلام هي القدوة والأسوة في الحق والحكمة من كل وجه. فمن أراد الحق والحكمة فليقتدي بسيرته وسنته صلى الله عليه وسلم. كما أن في نفي الهوى عنه صلى الله عليه وسلم، هو تحذير لهم من هوى أنفسهم، التي يجادلون بها الرسول صلى الله عليه وسلم فيما نزل عليه من الوحي، من ربه تبارك وتعالى.

ثم يحصر ويحدد الله تعالى مصدر ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم للناس بأنه وحي فقط ولا غيره ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ بما يفيد أنه عليه الصلاة والسلام لا يخرج عما أوحاه الله تعالى إليه، فإن مصدره فيما يقوله للناس هو الوحي من الله تبارك وتعالى. فإنما الذي يتلوه ويذكره لكم رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام هو وحي من عند ربه جَلَّ جلاله. وبالتالي ينفي عنه جميع ما يتهمونه به من الباطل، كالشعر والكهانة والافتراء، وغيره مما يفترون من الكذب الباطل. بل ورد الإثبات بأسلوب القصر والحصر. فأفاد حرف ﴿ إِنْ ﴾ توكيد ما بعده من بيان، فيؤكده توكيداً موثّقاً، بلا ريب ولا شك في أن مصدره هو الوحي، ثم تلاه الضمير ﴿ هُوَ ﴾ العائد على المنطوق به من الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي هو القرآن والسنة. ثم تم حصر وقصر المنطوق بحرف الحصر ﴿ إِلَّا ﴾ الذي حصر ما ينطق به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن والسنة في الوحي فقط، الذي يوحيه الله تعالى به إليه.

فإن هذا القرآن الكريم العظيم، وهذه السنة المطهرة، وما يدعوكم رسولكم إليه إن هو إلا وحي من الله تعالى. وخص الوحي لإفادة الحصر والقصر ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ أي: القصر بأن ما جاءكم به من القرآن والسنة، هو وحي من الله تعالى إليه. فينتفي به كل ما هو خارج عن الوحي، ومن كل ما يظنون أو يفترون من الكذب. فهو تصحيح للناس إلى قيام الساعة.

كما أفاد تكرار لفظ الوحي ﴿ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ التوكيد، فأعطى دلالة ﴿ يُوحَىٰ ﴾ التأكيد لما قبلها ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ ﴾ كما تصدر حرف التوكيد ﴿ إِنْ ﴾ صدارة الآية الكريمة لتأكيد ما بعده من البيان، بأنه وحي يُوحَى إليه صلى الله عليه وسلم من ربه عَزَّ في علاه. فما يقوله عليه الصلاة والسلام لكم من القرآن والسنة هو وحي من ربه تبارك وتعالى، فلا يخرج عن ذلك أبداً. فعليكم بالتصديق والإيمان والمتابعة فإنه خير لكم أمام هذه

الحجج والأدلة والبراهين. واتركوا التحدي بالجدال الذي ليس له أساس. فهو تصحيح وتعليم للناس إلى قيام الساعة، وتزكية للرسول صلى الله عليه وسلم تزكية أبدية.

ثم يخبر جَلَّ جلاله عن كيفية الوحي، ومصدر وصوله إلى النبي عليه الصلاة والسلام. فقال عَزَّ وجل ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ فالذي نقل الوحي من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم هو الْمَلَك جبريل عليه السلام، والذي اتصف بهذه الصفة العظيمة، وهو أنه ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ أي: أن الذي عَلَّم الرسول صلى الله عليه وسلم مَلَك من الملائكة، وهو جبريل عليه السلام الذي اتصف بأنه ﴿ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ أي: شديد القوة الظاهرة والباطنة. قال القرطبي رحمه الله تعالى وغيره من أهل التفسير: أنه اقتلع مدائن قوم لوط من الأرض، فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء، فقلبها. ومن شدته صيحته بقوم ثمود، حتى أصبحوا جاثمين خامدين[١] بما يفيد قوة بدنه، مع قوة قدرته على ما يكلفه الله تعالى به، وقوة أمانته، فلا يستطيع شيء أن يغلبه من المخلوقين. مما يفيد مكانته ومنزلته عند ربه سبحانه وتعالى. كما يفيد ذلك حصانة القرآن من أن دخله أو يدخله تحريف، لأن الذي نزل به قوي شديد، لا تتمكن الجن ولا غيرها منه بأي حال من الأحوال.

ثم ذكر سبحانه وتعالى المزيد من الوصف للمَلَك جبريل عليه السلام، فقال تعالى ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ أي: ذو قوة. قال الطبري رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال بالصواب في معنى ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ صحة الجسم، وسلامته من الآفات، والعاهات[٢] وقيل أيضاً أنها تعني ذي: طول ومنظر حسن. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: ذو قوة. قاله مجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن. وقال قتادة: ذو خَلْق طويل حسن. ولا منافاة بين القولين. فإنه عليه السلام ذو منظر حسن، وقوة شديدة[٣] فقد تكاملت صورة وهيئة جبريل عليه السلام في أكمل القوة والهيئة، مع المنظر الحسن.

ثم وصفه سبحانه بالاستواء ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ أي: فارتفع واعتدل. أي: أن الملك جبريل والرسول صلى الله عليه وسلم قد استويا بالأفق الأعلى، عندما أُسري بالرسول عليه الصلاة والسلام. قاله الفراء. وقيل استوى جبريل في الأفق على هيئته وصورته الحقيقية. لأنه كان يتمثل للرسول صلى الله عليه وسلم في صورة رجل، حين ينزل بالوحي. فأحب الرسول عليه الصلاة والسلام أن يراه على حقيقته، فاستوى في الأفق. فملأ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥٨/١٧)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١/٢٢)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٦٥/٤)

الأفق. قاله الزجاج[١] قال الزمخشري رحمه الله تعالى: فاستقام على صورة نفسه الحقيقية، دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي[٢] فارتفع واعتدل جبريل، فكان الاستواء وهو بالأفق الأعلى، أي: الذي يأتي منه النهار، وهو جهة المشرق.

فأخبر تبارك وتعالى موطن ومكان هذا الاستواء الذي هو الارتفاع والاعتدال فيه. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ فاستوى جبريل بارتفاعه واعتداله وهو جهة المشرق. قال قتادة رحمه الله تعالى: والأفق هو الذي يأتي منه النهار[٣] أي من جهة المشرق ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ فدنى، أي: قَرُب ﴿ فَتَدَلَّىٰ ﴾ أي: زاد في القرب، متعلقاً في الهواء. ومنه تدلت الثمرة. أي: أن جبريل قد زاد في القرب من الأرض ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴾ فكان جبريل من حيث المسافة عن الرسول صلى الله عليه وسلم عند نزوله بالوحي ﴿ قَابَ ﴾ أي: قدر ﴿ قَوۡسَيۡنِ ﴾ مسافة قوسين، والقوس قدر ذراع. ﴿ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴾ أو أقرب من مسافة القوسين. وقد ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى: أي: دنا جبريل عليه السلام منه صلى الله عليه وسلم، حتى كان قدر ذراع أو ذراعين[٤] بما يبين شدة القرب، وقِصَر المسافة بينهما، بما يفيد قرب مباشرته مع النبي صلى الله عليه وسلم بما أوحى به الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم. بما يفيد مباشرة نقل الوحي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. فليس هناك مجال للتفرقة، أو للقول والخلط فيما نقله جبريل من الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم. ليفيد قوة المبالغة في سلامة ما ينطق به عليه الصلاة والسلام من القرآن العظيم والسنة النبوية المشرفة. فلا مجال للطعن فيما يوحيه الله تعالى به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم. فتلك صفات الملك جبريل، وتلك هي المسافة بين الناقل والمنقول له عليه الصلاة والسلام. وفي هذا كمال التزكية للوحي، وبيان عناية الله تعالى بما يوحيه، وعناية الله تعالى بالبيان للعباد بما يبين لهم الحقائق التي يندحر بها أهل الافتراء من الناس.

ثم يخبر الله تعالى بأنه بهذا قد أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ما أوحاه إليه من الوحي بواسطة جبريل عليه السلام. فقال تعالى ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴾ فأوحى الله تعالى بواسطة جبريل ما أوحاه من الوحي ﴿ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أفاد تكرار الإيحاء بقوله عَزَّ وجل ﴿ مَآ أَوۡحَىٰ ﴾

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢٨/٧)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٤/٤١٧-٤١٨)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٢٢)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٢٢)

التعظيم والتفخيم والتأكيد بالمبالغة. أي: الذي أوحاه من الوحي إليه من القرآن العظيم، ومن التشريع، والأحكام والمواعظ وغير ذلك مما اشتملت عليه السنة مع القرآن الكريم.

وبناء على ذلك الوصف من حال الوحي، فإنه ينتفي أن يكون هناك كذب من الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى مُزكياً رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ ما كذب فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم في رؤيته لجبريل، كما أخبر بها، وبالتالي فما كذب فيما أوحي إليه من ربه بواسطة جبريل عليهما السلام. وفي هذا تزكية للرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما رأى، وفي كل ما نقل من الوحي إلى الناس. خاصة وأن دلالة الفؤاد تعني جميع ما يتعلق بالقلب، الذي هو معقل التلقي، والتعقل، والحفظ، والبيان. فمن براعة ودقة البيان وبلاغته أن أوقع نفي الكذب على الفؤاد فيما يرى. فلم يقل: ما كذبت رؤياه، بل ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ فالفؤاد هو الذي يعقل الرؤيا، وما يسمع السمع. بما ينفي التخيل، ورؤية الشيء على غير حقيقته. فأثبت صدق ما رأى عليه الصلاة والسلام بتزكية من ربه سبحانه وتعالى، بل جعلها آية في كتابه الكريم. فهي تتلى إلى أن يرث الله تعالى الأرض وما عليها.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى سؤال استنكار للجاحدين لرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ أبعد هذا البيان والتوثيق والحجج تجادلونه وتجحدونه فيما رأى عليه الصلاة والسلام. سؤال استنكار وتهديد ووعيد مع اللوم لهم فيما يجادلونه فيه عليه الصلاة والسلام. بما يفيد كفاكم جحوداً، فاتبعوه خير لكم من أن تمارونه وتجادلونه فيما يخبركم به عليه الصلاة والسلام.

ثم يخبر الله تعالى عن رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم لجبريل مرة ثانية غير المرة الأولى وهو على حقيقته التي خلق الله تعالى عليها جبريل عليه السلام. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ فهذا تأكيد للرؤية، التي ابتدأ بيانها بلام القسم، الملتحق بحرف التحقق والتأكيد ﴿ وَلَقَدْ ﴾ رأى الرسولُ محمد صلى الله عليه وسلم الملك جبريل ﴿ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي: في مكان آخر من النزول. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها جبريل على صورته التي خلقه الله تعالى عليها، وكانت ليلة الإسراء(١) بينما المرة الأولى كانت في الأرض. قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كان يأتيه

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم. وقد أورد تفاصيل مهمة في هذا الشأن (٤/٢٦٥-٢٧٠)

جبريل في صورة الرجال، وإنه أتاه هذه المرة في صورته، فسد أفق السماء. وقالت رضي الله عنها: أول من سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية. فقال: جبريل[١] فكانت الرؤيا في الأرض.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بمكان رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم لجبريل الحقيقية للمرة الثانية، وذلك عندما أُسري به عليه الصلاة والسلام. فقال تعالى ﴿ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾ والسدرة هي: شجرة النبق[٢] والمنتهى هو مكان الانتهاء، إذ إليها ينتهي علم الخلائق. قال القرطبي رحمه الله تعالى: لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فَيُقْبَضُ منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فَيُقْبَضُ منها[٣] قال السعدي رحمه الله تعالى: وهي شجرة عظيمة، فوق السماء السابعة، وسميت سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض. وما ينزل من الله تعالى من الوحي وغيره[٤] مما يبين عظمة خلق الله تعالى، وكمال تدبيره العظيم عَزَّ في علاه.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بمنزلة هذه السدرة العظيمة، من أن عندها جنة عظيمة، فقال عَزَّ وجل ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴾ عند هذه السدرة جنة الشهداء[٥] قاله مقاتل. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي جنة يأوي إليها جبريل والملائكة[٦] وهي شاملة أيضاً للمتقين، لأن السياق البياني لم يحصرها بنوع محدد، وقد ذكر أهل التفسير ذلك، كما أورده القرطبي وغيره. فقيل: وهي عن يمين العرش. وقيل: هي الجنة التي أوى إليها آدم عليه السلام إلى أن أُخرج منها. وهي في السماء السابعة، وقيل: أن أرواح المؤمنين كلهم في جنة المأوى. وإنما قيل لها ﴿ جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴾ لأنها تأوي إليها أرواح المؤمنين، وهي تحت العرش[٧] وهذا من عظيم مُلك الله تعالى وقوة تدبيره، وجلالة سلطانه. ومن تعظيم هذه السدرة أن نسب مكان الجنة عندها، فكانت هي الْعَلَمَ والعنوان للجنة، وذلك لبيان عظمتها ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴾ فجنة المأوى عند سدرة المنتهى، الذي تنتهي عنده علم الخلائق.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/١٨-١٩) (٢٨-٢٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢٣٠)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧/٦٣)

(٤) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/١٢٣)

(٥) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٤٠)

(٦) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢٣٠)

(٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧/٦٤)

ثم وصف سبحانه وتعالى هذه السدرة العظيمة، فقال جَلَّ جلاله ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ أي: إذ يغشي السدرة من أمر الله تعالى الشيء العظيم، الذي لا يقدر على وصفه أحد. فقد ورد الغشيان للسدرة بأسلوب التهويل والتعظيم ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لِمَا غشيها من أمر الله ما غشيها، تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها مِن حسنها) وقيل غشيها فِرَاشٌ من ذهب، وقيل: تغشاها الملائكة. وقال الضحاك: نور رب العالمين[١] ومن دقائق البيان أن ورد سياق الغشيان للسدرة بأسلوب التهويل والتعظيم للغشيان، فبدأ السياق بيانه بحرف ﴿إِذْ﴾ لإفادة الإشادة بالتعظيم مما أحاط بها. ثم ورد الغشيان بصيغة الفعل المضارع المستمر، الذي يفيد تتالي أمر الله تعالى بما يغشاها به من الكرامات. ثم أبهم ولم يظهر نوع الغشيان للسدرة ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ لإفادة التهويل والتعظيم والتكثير والتعدد لما يغشاها من الحسن والهيبة والفضل والخير. وقد أوصل الله تعالى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم إلى سدرة المنتهى، بما يبين عظيم منزلته ومكانته صلى الله عليه وسلم. حيث فُرضت الصلاة الخمس.

ثم يخبر الله تعالى عما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الثبات والطمأنينة عند رؤيته لما أراد الله تعالى أن يراه من أمر السماء، وذلك عندما أُسري به صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ لم يزغ فيميل بصر الرسول صلى الله عليه وسلم يميناً ولا شمالاً عما رأى، وكذلك ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: وما تجاوز البصر حدود ما أذن الله تعالى به أن يراه ويشاهده كما هو. وبالتالي رأى كل شيء على ما هو عليه من غير زيادة ولا نقصان. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ما مال بصر محمد، فَعَدل يميناً، ولا شمالاً عما رأى، ولا جاوز ما أُمر به ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ يقول: فما ارتفع عن الحد الذي حُدَّ له[٢] صلى الله عليه وسلم. مما يبين ما كان عليه الصلاة والسلام من الثبات والطمأنينة والأدب، وكريم الخلق التي وهبها الله تعالى له، عليه الصلاة والسلام. فلا سأل ولا رأى فوق ما أعطي له عليه الصلاة والسلام. كما أفاد قوله تعالى ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ انتفاء التجاوز أو المحاولة، بالنظر أو السؤال عما حدده الله تعالى له صلى الله عليه وسلم. وهذا دليل على امتثاله وكمال طاعته، ومكانته ومنزلته وحظوته صلى الله عليه وسلم عند ربه سبحانه وتعالى.

---

(١)بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢٣٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٤٣)

ثم يخبر الله تعالى بأسلوب التكثير والتعظيم عن عظيم ما رأى عليه الصلاة والسلام في السماء التي أوصله الله تعالى إليها. فقال تعالى ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ لقد رأى عجائب خلق الله تعالى في تلك الليلة، التي هي ليلة الأُسراء والمعراج. وقد بدأ البيان بلام القسم المتصل بحرف التأكيد والتحقيق ﴿ لَقَدْ ﴾ بما يؤكد ما بعده من الرؤية للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ رَأَىٰ ﴾ وقد وردت الرؤيا بصيغة الماضي، التي أفادت التحقق من حصول الرؤيا، وتفاصيلها. ثم ورد الجمع للآيات التي رآها عليه الصلاة والسلام ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ ﴾ بما يدل على كثرتها وتعددها، وعلى عظمتها، لأن الآيات تفيد الدلائل والحجج، والعظمة من البراهين التي تثبت شأن الآخرة التي وعد الله تعالى بها.

ومع عظيم ما رأى عليه الصلاة والسلام من الآيات إلا أنها بعض منها وليست كلها، إذ سبق الآيات حرف ﴿ مِنْ ﴾ الذي أفاد التبعيض. ومن جلالة وكرامة تلك الآيات أن أضافها الله تعالى له عَزَّ في علاه، فقال جَلَّ شأنه ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ﴾ وقد أظهر فيها الربوبية ﴿ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ﴾ بل أظهر مقام رسوله صلى الله عليه وسلم بإضافته إليه ﴿ رَبِّهِ ﴾ ثم عَظَّم الله سبحانه وتعالى تلك الآيات بوصفها بالكبرى ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ فدلالة ﴿ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ تفيد أنها عظيمة جداً. فقد رأى سدرة المنتهى، وجبريل على حقيقته. قال الشوكاني رحمه الله تعالى، مُلخصاً ذلك: أي: والله لقد رأى تلك الليلة من آيات ربه العظام ما لا يحيط به الوصف. قيل: رأى رفرفاً سد الأفق. وقيل رأى جبريل في حلة خضراء، قد ملأ ما بين السماء والأرض، له ستمائة جناح[1] مما يدل على عظيم ما رأى عليه الصلاة والسلام مما هو غيب على غيره من آيات الله تعالى الباهرات. ليكون ذلك دليل إثبات للآخرة، وأنه لا شك ولا ريب في الحياة بعد الموت.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ

(١) الشوكاني: فتح القدير (١٠٧/٥)

وَٱلۡأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

بعد أن أوضح تبارك وتعالى بالسياق والبيان العظيم مما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم من كريم المنزلة والأمانة والصدق والأخلاق والتعظيم له من الله تعالى، وما كان عليه من الحق الواضح المبين، مع عظيم التزكية له عليه الصلاة والسلام في كل ما جاء به من الرسالة، وطاعته لربه عَزَّ وجل، وبعد كل هذا المجد والتمجيد، ودلالات الصحة لرسالته ودعوته، تنتقل السورة الكريمة إلى بيان ما عليه المشركون من الباطل. فقال تعالى مُبْطِلاً لِمَا يعبده المشركون من الأصنام ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴾ سؤال إنكار وتهكم لِمَا يعبدون من دون الله تعالى من الأصنام. وقد استهل البيان بسؤال يستثير العلم وحقائقه ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ﴾ لتجتمع رؤية العين، مع رؤية البصيرة معاً، بما يشد الانتباه لما بعده من بيان عما يخص هذه المعبودات التي تُعبد من دون الله عَزَّ وجل. وقد عينها سبحانه وتعالى بأسمائها ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ ﴾ وهو اسم صنم كان لثقيف بالطائف، وهو عبارة عن صخرة، وكانوا يعظمونها. ثم عطف عليه الصنم الآخر الذي أسموه: العزى ﴿ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴾ وهو اسم لشجرة بغطفان، كانوا يعبدونها، وقد قطعها خالد بن الوليد رضي الله عنه بأمر من الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم ذكر تبارك وتعالى صنمهم الثالث: الذي يعبدونه، فقال تعالى ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾ ومناة هو اسم لصنم بين مكة والمدينة، ونعته تبارك وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾ أي: أن صنم العزة ثالث الصنمين السابقين. وتم التأكيد لها بدلالة ﴿ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾ بما يفيد: أخبرونا يا من زعمتم أن اللات والعزى ومناة بنات الله تعالى بزعمكم وافترائكم الكذب ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴾ هل لكم جنس الذكر، ولربكم جنس الإناث. فتختارون لأنفسكم ما تحبون، وتختارون لربكم ما تكرهون. لإظهار قوة كفرهم وتماديهم في الباطل، وكأن الكون مُلك لهم، فيقسمون لأنفسهم ما يشاؤون.

فإذا كان هذا اختياركم وقسمتكم فإنها قسمة جائرة ﴿ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴾ فإنها قسمة عوجاء، جائرة، إذ فضلتم أنفسكم على خالقكم. فتعالى الله عما قالوا علواً عظيما. فمعنى ﴿ ضِيزَىٰٓ ﴾ ظالمة وجائرة. بما يفيد التَّهَكُّم بتفكيرهم ومنطقهم المنحرف، وتوبيخ لهم حتى في طريقة قسمتهم. وتقرير جهلهم، بما يتوجب عليهم أن يدركوا عمق ما هم فيه من الجهل مع الطغيان، مما يترتب عليه أن يفرحوا بما جاءهم من العلم الذي تذعن له العقول، بما أنزله الله تعالى على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات والحجج والبراهين.

ثم ينقلهم إلى حقيقة ما يعرفون من الجور والاختراع، فقال تعالى ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ إنما تلك الأصنام وتسميتها إنما كان باختراعكم أنتم ومن سبقكم من الآباء، فقد اخترعتموها وسميتموها بتلك الأسماء، من غير حجة ولا برهان لديكم من ربكم بذلك الذي فعلتموه. وابتدأ البيان الكريم بتعيين تلك المعبودات بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِنْ هِيَ ﴾ أي: إن تلك الأصنام المذكورة لكم سابقاً، ما هي ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ فحصرها البيان بحرف ﴿إِلَّآ ﴾ الذي أفاد قصر التسمية عليهم ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ بما يفيد أنها لم تخرج في تسميتها واختراعها عنكم ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ فأنتم وآباؤكم فعلتم ذلك اختراعاً من عند أنفسكم. فأثبت لهم ما يعرفون من حقيقة جهلهم، فأوقفهم البيان العظيم من الله تعالى على ما كان منهم في شأن الأصنام.

ثم تدرج معهم في بيان الحقائق من خلال انتفاء الدليل الذي يقوم عليه هذا الاختراع والافتراء. فقال تعالى ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ ليس عندكم حجة ودليل من أن الله تعالى أمركم بذلك، بما يؤكد أنه اختراع من أنفسكم. فأكد بذلك حصر التسمية منهم، ومن غير حجة من الله تعالى عليها. وبما يفيد أخرجوا حجتكم إن كان لكم حجة. مما يفيد أن هذا الدين قائم على الحجج والبراهين، وليس على الأهواء والمزاعم. وبالتالي كل بدعة في الدين هي داخلة في الضلال.

ثم ينقلهم إلى سبب فعلهم من عبادة الأصنام، واختراع التسمية لها، فيقول عَزَّ وجل ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ فإن الذي دفعهم إلى عبادة تلك الأصنام إنما هو نابع من أمرين: الأول: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ وهو الاعتقاد الفاسد الذي لا أصل ولا حقيقة ينبني عليها، وهو الوهم. ثم يؤكد ذلك بالأمر الثاني، وهو: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ والسبب الثاني: لاتخاذهم للأصنام هو: أنهم اتبعوا ميول النفس وشهواتها في جانب العبادة، وما يمليه ويزينه الشيطان لهم. ولم يكن لهم فيه دليل من ربهم على ما اخترعوا من الأصنام والتسميات. مما يبين مخاطر الظنون، ومخاطر اتباع هوى النفس، وخاصة في الدين. مما يُعَلِّم المسلم أن عليه أن يلزم الكتاب والسنة، ولا يسير وراء ظنونه، ولا وراء ميوله وأهوائه النفسية، فإنها تؤدي به إلى الخروج عن الحق شيئاً فشيئاً. بل يجب أن تكون حياة المؤمن مبنية على اليقين والتيقن من كل أمر وشأن، وأن يحذر من هوى النفس. لأن الهوى الذي هو الميل من غير دليل وبرهان يؤدي إلى الشر، وما يتبعه من الإثم.

وبعد أن أبطل الله تعالى عقيدتهم من الشرك الفاسد، بالدليل والحجج، وعَرَّفَهم بالحق، ينقلهم إلى ما يجب عليهم بعد حصول العلم لهم ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ فقد جاءهم كمال العلم بالحق من ربهم وخالقهم سبحانه وتعالى. فأما الآن فقد ورَدَهم من ربهم الحق الذي يُبطل به ما هم عليه من الشرك والضلال، فيجب عليهم الاتباع ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ فلقد جاءكم من ربكم أيها الناس الهدى، الذي يحرركم من الظنون الفاسدة، ومن هوى النفس، والجهل، وعبادة الأصنام، وينقلكم إلى عِز التوحيد، وهداية التشريع، ومكارم الأخلاق، وفي كل باب تحتاجونه في الدنيا وفي تحصيل سعادة الآخرة، وأن ما جاءكم من الحق يهديكم إلى نجاتكم من العذاب في الآخرة، ويُدخِلُ من تمسك به الجنة، التي هي دار الخلود.

وقد أكد سبحانه وتعالى مجيء الهدى منه عَزَّ وجل لهم بلام القسم المتصل بحرف التأكيد والتحقيق ﴿ وَلَقَدْ ﴾ لتأكيد أنه لم يعد لهم عذر بعد أن أبطل سبحانه وتعالى ما هم عليه من الشرك بالحجج والبراهين، وأثبت لهم الهدى بالدليل. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ولام القسم لتأكيد الخبر للمبالغة فيما يتضمنه من التعجب من حالهم[١] ومن دقائق البيان أن أورد سبحانه وتعالى مجيء الحق لهم بفعل المجيء ﴿ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ من غير تعب منهم، ولا جهد بذلوه، لينقذهم من النار، ويرغبهم في الجنة. وسَمَّى الله تعالى دينه بالهدى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ لإفادة أن كل ما تضمنه هو هداية لهم في الدنيا وإلى سعادة الآخرة، وذلك لمن أخذ به. وأما من حاد عنه فإنه على غير هدى، وبالتالي هو في ضلال، يوصله إلى ضلال الدنيا، وعذاب الآخرة. فهو ترغيب لهم ولكل إنسان أن يأخذ بهذا الهدى. بل قد عَظَّمَهُ اللهُ تعالى بأن نسبه إليه، ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ فهو من ربكم، وليس من غيره. مما يزداد به الترغيب، مع كمال التزكية لكل ما فيه بأنه لا يُوصِلُ إلا للهدى. فالحمد لله رب العالمين على هذا الفضل والإرشاد المبين العظيم. اللهم اهدنا ووفقنا وجميع المسلمين، وأحسن خاتمتنا بفضلك يا رب العالمين.

ثم يحثهم سبحانه وتعالى على الإيمان من خلال انتقاد ما هم عليه من تعليق أمانيهم بحجارة لا تنفع ولا تضر، فقال تعالى ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ أم أن يكون للإنسان ما يتمنى من النفع، وتحقيق الْمُبْتَغَى، فبمجرد ما يتمنى يتحقق له ما يريد. أي: بما يتمنون به من الانتفاع من الأصنام في الشفاعة لهم. استفهام إنكاري، يُبطل به أن يتحقق للإنسان ما يتمنى من خلال هواه، واعتقاده فيما لا يحقق له شيئاً مما يتمناه. وفيه تعليم للإنسان بأن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه بالكيفية والمنهجية التي يتصورها. بما يعيده السياق إلى أن يلتجئ إلى ربه،

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٨٧/١١)

بتوحيده، وإفراده بالعبادة، والتي منها الدعاء والسؤال له سبحانه وتعالى أن يحقق مناه من الخير في الدنيا والآخرة.

ثم يؤكد ذلك سبحانه وتعالى بإظهار وبيان كمال مُلكه سبحانه وتعالى للحياة الدنيا والآخرة، فقال تعالى ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْأَخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ فجميع ما يخص الدنيا والآخرة هو مُلك لله تعالى، يتصرف فيه كما يشاء عَزَّ وجل. وبالتالي فلا ينال ولا يملك أحد شيئاً إلا بإذنه عَزَّ وجل. ومن دقائق البيان تقديم الآخرة على الأولى ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْأَخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ وذلك لبيان وإظهار أهميتها، وأنه يجب تقديم متطلباتها على الحياة الدنيا، وأن الحياة الدنيا هي مزرعة الآخرة. وأنها أهم من الحياة الدنيا. لأن الحياة الدنيا زائلة، وفانية، وأما الحياة الآخرة فإنها هي الباقية. فيجب عليكم العناية والاهتمام بها، وتقديمها كما قدمها ربكم في بيانه. كما أفادت أن حياة الإنسان مرتين: الأولى: التي هي الحياة الدنيا. والثانية: في الآخرة، وهي الحياة الأخيرة التي ليس بعدها موت، ثم حياة. بل هي الحياة الدائمة التي لا انقطاع فيها أبداً. مما يبين عظيم الإعجاز البياني في القرآن الكريم، حتى في التقديم والتأخير، والترتيب.

ثم يؤكد ذلك تبارك وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ فإن الملائكة الكرام، ومع ما هم عليه من كمال الطاعة والامتثال والمكانة والمنزلة، لا يملكون الشفاعة لأحد إلا من بعد إذنه سبحانه وتعالى، وذلك بالموافقة لمن يشاء من الملائكة، ويرضى للمشفوع فيه. فإذا كان هذا مع الملائكة المقربين، فكيف بغيرهم؟ وبالتالي فكيف بأصنام لا حول لها ولا قوة، ولم يشرع عبادتها جَلَّ في علاه، بل بعث الرسل ببطلانها وتحريم عبادتها. وفي هذا توبيخ حتى لمن عبد الملائكة الذين هم الأكثر امتثالاً وطاعة لربهم سبحانه وتعالى، ومع ذلك لا تشفع ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ وفي هذا تصحيح للأفهام بطريقة القياس بأمثل المخلوقات طاعة، وهم الملائكة، فعلى الرغم مما لها من المنزلة والمكانة فإنها لا تشفع إلا لمن أذن أن يُشفع له من الله العزيز الحكيم.

وقد ورد البيان بصيغة التكثير والتعظيم، فقال تعالى ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ ﴾ لإفادة كثرة الملائكة، مع عظيم منزلتهم ومكانتهم عند ربهم. وبالرغم من ذلك فإن جميع الملائكة على كثرتهم ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ المرتفعة، لا تنفع شفاعتهم إلا بإذن الله تعالى ومشيئته. وقد أظهر الله تعالى تلك المكانة للملائكة ببيان موقعهم أنهم في السماوات ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ مما يدل على سمو مكانتهم ومنزلتهم ورفعتهم عند الله سبحانه وتعالى، وبالرغم من ذلك فإنه ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ ليس لشفاعتهم قبولاً ولا أثراً أبداً. بل نفى ذلك

نفياً قاطعاً ﴿ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ لإفادة التعميم، ثم أورد الاستثناء المرتبط بمشيئته عَزَّ وجل ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ فهما شرطان لتتحقق شفاعتهم: فالشرط الأول هو: ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أن يشاء الله تعالى، فيأذن لمن أذن له من الملائكة. والشرط الثاني: ﴿ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ ويرضى عن المشفوع له. فهي شفاعة مشروطة، فالشرط الأول: الذي هو ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أفاد أن كل شيء تحت مشيئة الله عَزَّ وجل. والثاني: أفاد رضاه سبحانه وتعالى ﴿ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ مما يفيد أنه لن يرضى لمن كفر وأشرك، لأنهم أبعد الخلق عن طاعة الله تعالى. مما يؤكد ويبين بطلان الشرك، وخسارة المشركين. وأن عليهم طاعة ربهم وفق ما شرع، بما جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وإلا خسروا الدنيا والآخرة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾

ثم يعود السياق الكريم إلى بيان حال الكافرين، فيخبر الله تعالى عن جرأة الذين لا يُصَدِّقُون باليوم الآخر، فإن من افتراءاتهم أنهم يُسَمُّون الملائكةَ بأسماء الإناث. فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ إنَّ هؤلاء الكفار الذين ينكرون الآخرة، فلا يصدقون بالبعث بعد الموت، فينكرون الحساب والجزاء ﴿ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ فإنهم يُسَمُّون الملائكةَ بأسماء الإناث. فكفرهم بالبعث بعد الموت، قادهم إلى أن يحكموا ويشرعوا ما أرادوا، وكأنهم المصدر الرئيس للدين. حتى بلغ بهم الأمر أنهم يسمون الملائكة بالإناث وهو قولهم: إن الملائكة بنات الله، فتعالى الله عما يقولون علواً كبيرا.

ثم يبين سبحانه وتعالى أن قولهم هذا لا يستند على علم، بل هو افتراء منهم. فقال تعالى ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ ليس عند هؤلاء الذين افتروا على

الملائكة تسمية الأنثى من أي شيء من مستندات العلم. بما يفيد أنه افتراء من عند أنفسهم، فنفى عنهم سبحانه وتعالى العلم ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ ليثبت ما هو ضده، وهو الجهل، واصطناع الكذب على الله تعالى، بالافتراء والاختراع، إذ جعلوا الملائكة بنات الله تعالى، مما يبين أنهم وأسلافهم الذين قلدوهم منتفي عنهم العلم، فتحقق فيهم الجهل والافتراء على الله تعالى. مما يفيد التحذير من القول بلا علم، وخاصة في أمور الدين. وكذلك التحذير من تقليد الآخرين فيما أنشأوه أو فيما ورثوه من الضلال والكفر والافتراء على الله تعالى بغير علم.

وهذا يُعلم الإنسان ويحذره من التخمين، ومن كل موروث بلا علم وحقيقة. بما يؤكد أن هذا الدين هو دين العلم، ودين الدليل والحقائق، وأنه يحارب الجهل والضلال، ويهدي إلى صراط الله المستقيم. ومن دقائق البيان إضافة ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ والتي أفادت التبعيض، أي: ليس لديهم أدنى درجات العلم فيما قالوا. إذ كان بالإمكان الاستغناء عن ﴿مِنۡ﴾ أي: ما لهم به علم. ولكن زيادتها في المبنى، أدى إلى زيادة المعنى، لتعطي دلالة عظيمة في المقصد. من أنه ليس لهم أدنى درجات العلم. وهذا من إعجاز البيان في القرآن الكريم.

ثم يتأكد ضلال المشركين باتباعهم الظنون والتخرص، فقال تعالى ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ فإنهم يتبعون ظنونهم من التخمين والتخرص، وأنهم ليسوا على بصيرة ويقين، فظنهم كائن من غير حقيقة ولا دليل. بل يتبعون الكذب والوهم. لأن مبدأ الظن الفاسد هو من القلوب الخالية من العلم والدليل، بحسب ما فيها من الجهل. فهم لا يعلمون بصفة الملائكة، ولا تكوينها وهيئتها، وإنما اعتمدوا على التخيل بما تهواه نفوسهم. فإن مجرد الظن والوهم والتخمين لا يغني من الحق شيئا، لأنه لا يقوم مقام العلم، كما أن الحق لا يُدْرَك بالظن، وأن أمر وشأن الدين مبني على العلم، الذي يتضح به الحق من الباطل، والصواب من الخطأ. مما يبين خطورة الأحكام المبنية على الظن الذي لا يرتكز على علم وبرهان ودليل.

ومن جميل عمق البيان ودقته وقوته أن الله تبارك وتعالى أبان قاعدة تفكيرهم، بأنها محصورة في الظن ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ فلا يتبعون أمراً يقينياً، بل يتبعون ظنونهم المبنية على الجهل. ثم أبان سبحانه وتعالى ما قَصُرَ به ظنهم. فقال عَزَّ وجل ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ فإن الظن لا يغني في معرفة الحق واستبانته شيئاً. فمرجع أقوالهم إلى التخمين، بينما المؤمنون يتبعون رسولاً من الله تعالى، على حقيقة من أمرهم، وبينة وحجة وبرهان وعلم. فشتان بين منهجهم وسبيلهم وبين منهج المؤمنين القائم على العلم والدليل. مما يفيد أن منهج هذا الدين قائم على العلم بالبرهان والدليل، وأنه يُعَلِّمُ أتباعه منهجية العلم والبرهان في جميع شؤونهم،

ليستقيم أمرهم وشأنهم، ونجاحهم في كل أمر من شؤون حياتهم وآخرتهم، وعباداتهم. كما يبين هذا الأسلوب البياني أهمية المقارنة في التوضيح والتعليم، وغرس اليقين.

ومن دقة منهجية السياق القرآني هو تدرج البيان، فبدأ أولاً بإثبات وكشف تعديهم على خلق الله تعالى، في شأن تسمية الملائكة بالإناث ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ ثم تدرج إلى بيان جهلهم بما قالوا. بما يُثبت افتراءهم الكذب. وجرأتهم وتماديهم في الباطل. فقال تعالى ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ ثم انتقل إلى بيان مصدرهم في الافتراء ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ ثم بين حقيقة الظن، وما هيئته ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ فالظن لا يغني في معرفة الحق واستبانته شيئاً. فمرجع أقوالهم إلى التخمين، الذي لا يعطي الحقائق، بل الوهم والافتراء. مما يبين أن منهج القرآن في إقامة الحجة مبني على الاستدلال والإثبات، وتفنيد وتفصيل الأمور تفصيلاً بديعاً، ومتدرجاً، بحيث يأخذ الْمُخَاطَبين إلى الحق بقناعة علمية من واقع الأحداث والآيات والحجج والبراهين. مما يكشف به لطالب الحق الحقيقة التي تجعله يؤمن ويصدق به، في قناعة تامة. بل ويُعَلِّم أتباعه منهجية الاستدلال، وتحليل الواقع والبراهين بدقة وعناية.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمنهجية التعامل مع من أعرض عن دين الله تعال، وتولى عن القرآن العظيم ومواعظه وبيناته وآياته، واستأثر بالحياة الدنيا عن الآخرة. فقال الله سبحانه وتعالى ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ فامضي في طريق دعوتك إلى الله تبارك وتعالى والانصراف والتولي عن الذين رفضوا الحق من ربهم عَزَّ وجل، وهو القرآن الكريم، واستأثروا بالحياة الدنيا عن الآخرة. وقد سمى الله تعالى القرآن هنا بالذكر ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ لما فيه من التذكير بما فُطر عليه الإنسان من التوحيد، ولما فُطر فيه من محبة الخير، وكراهية الشر. كما أن القرآن يُذكر الإنسان بما يحقق له مبتغاه، من خلال مواعظه، وبراهينه، وتعاليمه، وأحكامه، وتشريعه، وإعجازه البياني والبلاغي. فاجهر أيها النبي صلى الله عليه وسلم بدعوتك، وأعلن ما أمرك الله تعالى به من الدين، ولا تُبالي بالمشركين، وطعونهم، واستهزائهم، ولا تتوقف بسبب حرصك على دخولهم في الإسلام، ونجاتهم من عذاب ربك لهم. فاقبل على ما أنت فيه من الرسالة، ولا تلتفت لاستهزائهم، وإعراضهم، بل أعرض عن إعراضهم، ولا تشتغل وتنشغل بالرد عليهم، ولا باستفزازهم. وفي هذا تقرير قاعدة عظيمة للداعية، وللعامل في عمله، والإداري في إدارته، والحاكم لبلده، بأن لا يلتفت ولا ينشغل بطعون وافتراءات أعدائه ومبغضيه لما هو فيه من الحق الذي يسير فيه. بل يمضي قدماً في شأنه، طالما أنه يسير وفق مراد الله تعالى ونهجه.

ثم أخبر الله تعالى بمرادهم، إذ كشف طويتهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ فهؤلاء المعرضين لا يريدون العاقبة الحسنة، وليس لهم مراد وطمع في الآخرة، بل مرادهم منحصر ومقتصر في مطالب الدنيا وشهواتها الفانية. وورد البيان هنا بأسلوب الحصر والقصر ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ فقد أفادت ﴿ إِلَّا ﴾ قصر وحصر إرادتهم فقط في ﴿ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ بما يعني ويفيد أن الآخرة لا تعني لهم شيئاً، وبالتالي لا تُشغل نفسك بهم عن غيرهم ممن يريد الآخرة. وبما يفيد أهمية ترتيب الأولويات، وألا ينشغل الإنسان بما ليس في الانشغال به جدوة ونتيجة صالحة. ولا يجعل المتعثر سبباً في التوقف عنده وعدم الاستمرار والمضي قُدماً، بل يستمر في قوة ونشاط، ولا يتأثر بالعقبات، فيتجاوزها إلى غيرها. ولا يتوقف بالانشغال بها. وهذا يعطي المؤمن منهجية له في عموم الحياة، ومنها الجانب الدعوي، والقيادي والإداري، بأن لا يتوقف عند المثبطين، ولا ينشغل بهم، ولا يلتفت إليهم، بل يمضي قُدُماً.

ثم يخبر تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، بأن ما أخبرناك به من أنهم حصروا أطماعهم في الحياة الدنيا، وإشباع شهواتهم الفانية. فإن ذلك هو أقصى ما عندهم من العلم، إذ ليس لهم رغبة في الآخرة، فإنهم لا يؤمنون بها. فقال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ فإن ما هم فيه من الشرك والتعالي هو أقصى ما لديهم من علم. فنهاية علمهم وقصور فهمهم هو إيثارهم الحياة الدني على الآخرة. ويرون أنهم على أقصى كمال العلم. مما يفيد أنهم في مرحلة الجهل المركب. إذ يجهلون ويظنون أنهم يعلمون. فلم يبلغ ويصل علمهم إلا على ما يظنون من الظنون التي رتبوها على التخمين الذي لا يرتكز على دليل ولا حجة.

وقد استهل السياق بيانه باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما تضمنته الآية السابقة من حصر رغبتهم فقط في الحياة الدنيا، كما أفاد الْبُعْد والاستبعاد من ترك ما هم عليه، فذلك الفهم القاصر قد أبعدهم عن الحق. ثم أكده سبحانه وتعالى بأن ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ بما يفيد تحقير علمهم إذ كان ذلك هو أقصى غاية علمهم ومعرفتهم، بما يفيد الازدراء والتحقير لأفهامهم وإدراكهم الهزيل، كما أفاد هذا التهوين والتقليل من شأنهم، مع تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما يصيبه من الحزن على من صد وكفر. لأنه عليه الصلاة والسلام حريص على دخول الناس في الإسلام، ليبعدهم عن سخط الله تعالى وعذابه. وليفوزوا بالآخرة.

وقد أفادت دلالة جملة ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أن هذا هو نهاية معرفتهم، التي يرون بها أنهم بلغوا بها غاية العلم في زعمهم القاصر. فدلالة ﴿ مَبْلَغُهُم ﴾ تفيد أقصى الشيء ومنتهاه. فمنتهى علمهم هذا الجهل

العقيم. مما يبين أن الجاهل إذا اعتقد أنه على علم لا يساوره الشك فيما هو فيه من الباطل، فقد أحاط نفسه بسياج من الجهل. في حين أن الجاهل المتواضع، يسمع لغيره، ويفكر فيما يجد من المفاهيم، ويتأملها. ثم يأخذ الأصلح. مما يبين خطورة الجهل مع الكبر.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بعظيم علمه المسبق لمن هم في ضلال، ولمن يَقْبَل الهدى، ويهتدي به. فإن ربك أعلم بحقيقة الفريقين. فقال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ فربك أيها الرسول هو الأعلم بمن حاد عن طريق دينه ربه سبحانه وتعالى، وإصراره على اتباع الكفر، فأصبح الضلال طريقه ومنهجه وسبيله. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: إن ربك يا محمد هو أعلم بمن جار عن طريقه في سابق علمه، فلا يؤمن، وذلك الطريق هو الإسلام[١] وقد ورد فعل الضلال ﴿ضَلَّ ﴾ بصيغة الماضي، بما يفيد أنه واقع في الضلال، من غير رغبة في الهدى، فأفادت دلالتها علم الله تعالى بما اختاره العبد، وحكم على نفسه بمراده. كما أفدت دلالة ﴿هُوَ أَعْلَمُ ﴾ أن كمال العلم محصور لربك سبحانه وتعالى، والذي تم تأكيده بحرف التأكيد ﴿إِنَّ ﴾ الذي تصدر البيان. بما يعطيك أيها الرسول كمال نتيجة معرفة ربك بالعباد على ما هم عليه، وبما سيكونون عليه. وبما يفيد تأكيد الإعراض عنهم، والاستمرار في الدعوة إلى الله تعالى، وعدم الوقوف عندهم رجاء إسلامهم. مما يُعلم المؤمن والداعية إلى الله تعالى، والمشتغل بأهدافه من الخير والبناء، ألا يُوقف نفسه ويتوقف عند الحاسدين، والجهال، والمستكبرين. بل يمضي قدماً في سبيله وشأنه من الخير.

ثم ذكر أيضاً سبحانه وتعالى كمال علمه بمن يسمع الهدى، ويتواضع له، ويأخذ به. فقال تعالى ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ وإن ربك أيها الرسول، صلى الله عليه وسلم، هو أعلم بمن تحققت فيه الهداية، فيقبلها، ويلتزم بها. مما يبين عظيم علم الله تعالى بما سيكون قبل أن يكون، بل وكيف نهاية كل شيء، وكيف سينتهي، ومن ذلك خواتيم العباد، ومَن منهم سبقت له الجنة، ومن سبقت له النار. مما يُوجب على العبد الاستعانة والاستجارة بالله تعالى، وسؤاله التوفيق والهداية وحُسن الخاتمة.

ثم يجمع الله تعالى بالبيان الكريم بين عظيم ملكه وعلمه وبين محاسبته لعباده وكمال عدله، ومجازاته للعباد بما يستحقون من الثواب أو العقاب. فقال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٩/٢٢)

﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ فإن لله تعالى كمال الملك لِمَا في السماوات والأرض، مما تعلمون، ومما لا تعلمون مما غاب عنكم، ومما تشاهدون من الخلق والتدبير. لتفيد كمال الملك، مع تمام القدرة، وكمال التصرف، وأنه عَزَّ في علاه غالبٌ على أمره، وأنه هو القاهر لما في السماوات والأرض، فلا أحد ولا شيء يخرج عن قدرته وإرادته وكمال سلطانه، ومنهم العباد وما يتصرفون فيه، مما مكنهم منه بفضله وتسخيره.

فبعد أن نبه جَلَّ جلاله العباد بكمال ملكه وعظيم سلطانه. ذكر تبارك وتعالى جزاءه العادل للمسيئين بما كان منهم، وللمحسنين بما كان منهم. وفي هذا الربط بين عظيم الملك وبين الجزاء، ما يفيد تعظيم المحاسبة، وتهويل شأنها، وكذلك تعظيم الجزاء، سواء كان بالثواب للمطيع، أو بالعقاب والعذاب لمن عصى. وبما يعني ويفيد: انتبهوا أيها العباد واحذروا، من شأن المحاسبة، فأطيعوا ربكم وفق ما جاء به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ ليجزي كل أحد بما يناسب ما اكتسبه من الطاعة أو المعصية. مما يبين انقسام الناس إلى صنفين: فأحدهم ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ وهم الذين أساؤوا بأعمالهم التي عملوها. فعصوا ربهم، بما ارتكبوا من الشرك وعموم الكفر ومعصيتهم لربهم، وعدم طاعتهم لِمَا جاءهم من الحق من الله سبحانه وتعالى، فارتكبوا أعمال الكفر، والمعاصي، فيجزيهم بما يستحقون من العذاب ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ ونسب أعمالهم إليهم ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ من الإساءة، فلم يظلمهم بغير أعمالهم. ليفيد التحذير من أعمال السُّوء بجميع أنواعها ودرجاتها. إذ هي شاملة للقبيح من الأقوال والأعمال والاعتقاد.

والصنف الثاني: الذين أطاعوا ربهم، فقال تعالى ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ أي: ويثيب الذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا مثوبة وأجراً، وحياة طيبة، وكرامة لهم من الله تعالى في الآخرة. وهي دخولهم الجنة، إذ تعني: الحسنى ﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾ الجنة. مما يدل على سعة العطاء، فإن من سعة العطاء أنها لم تُحصر في نوع، أو مقدار، بل جاءت مطلقة عامة لتشمل جميع الْحُسن الذي خلا من الشر، فتشمل كل ما تقر به الأعين، من اليقين الذي يسعد به المؤمن في الدار الآخرة، وكريم العطاء، ونفاسته التي لم تخطر ببال أحد منهم. فيثيب الذين صَدَّقوا بالله تعالى، وصَدَّقوا برسوله، وعملوا بشريعة الله تعالى التي أنزلها عليهم. فهؤلاء لهم الجنة. مما يفيد أن الأصل في الرجوع إلى الآخرة هو لتلقي الجزاء والإثابة، كل بما عمل في الدنيا. مما يبين: أن عليكم أيها الناس اغتنام الدنيا الزائلة بالعمل للآخرة الدائمة، وفق ما جاءكم به رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ذكر تبار وتعالى أن من صفات الذين لهم الحسنى أنهم يجتنبون الكبائر، والفواحش. فقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ فإنهم يحذرون كبائر الذنوب باجتنابها، والبعد عنها. بل أفاد قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ التباعد عنها وعن أسبابها، وتوقيها إلى درجة عدم الاقتراب منها أصلاً، ليكونوا في بُعد وحذر منها. فقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ وهي كل ما كبر وعَظُم من المعاصي والذنوب، التي ورد فيها الوعيد والتهديد بالعذاب. فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن: الكبائر: كل ذنب ختمه الله تعالى بنار أو غضب، أو لعنة، أو عذاب[١] مثل: الشرك، والسحر، وقتل النفس بغير حق، وقول الزور. وأما ما يخص عدد الكبائر فقد ذكر العلماء أنها كل ذنب وعد الله تعالى بالنار على من اقترفه. وقيل هي: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور[٢] وجاء في الحديث بيان أكبر الكبائر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر. (ثلاث) قالوا بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. وجلس وكان متكئاً، فقال: ألا وقول الزور. فمازال يكررها، حتى قلنا ليته سكت)[٣] فالكبائر هي الآثام التي رتب عليها ربنا تبرك وتعالى العقوبة القوية على صاحبها، سواء في الدنيا أو في الآخرة.

ثم عطف تبارك وتعالى الفواحش على الكبائر ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وهو اسم جامع لكل ما تعاظم واشتد قبحه من الأفعال والأقوال. وهو ما تنفر منه الطبائع السوية، وتزدريه العقول السليمة، ومن ذلك الزنا وشرب الخمر، وقيل: كل ما ورد فيه الحكم على صاحبه بحد. وتدخل الفواحش ضمن الكبائر، ولكن جرمها شديد، باعتبار قوة شناعتها، لأنها الأشنع في مجموع الكبائر، وذلك بقوة فحشها، المتنافي مع الفطرة السليمة، كالقتل، والزنا، وعقوق الوالدين. وهذا من دقائق البيان في استيعاب جميع مفردات المراد. مع تخصيص الخاص عن العام لبيان قوته من بين مفرداته وأفراده. وذلك لبيان عظيم جُرمها، لأن في الإثم التعمد والقصد، وفي الفواحش تعاظم قبحه وشناعته من الأفعال والأقوال، كالظلم المتعمد بالاستطالة على الناس. وإذا أُفرد أحدهما جمع الآخر، وإذا أُفرد أحدهما عن الآخر، فلإظهار مزيد الشناعة، ببيان دقائق الفروق. ففي تعيين الخاص مع ذكر العام ما يفيد التأكيد والإظهار والتعظيم، وقوة الزجر. وفي هذا البيان من رب العباد ما يفيد التحريض على البعد عنها وعن بوعثها، وأسباب تحصيلها، حتى يكون المؤمن في منأى عنها، لأن من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٦٥٢)

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/١٠٤-١٠٥) وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/١١٤-١١٦)

(٣) البخاري (٢/٢٥١-٢٥٢) برقم (٢٦٥٤)

ثم من رحمته سبحانه وتعالى أنه استثنى من ذلك مالا يمكن التحرز منه، فقال تبارك وتعالى ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ فاستثنى اللمم، الذي هو: ما قَلَّ وصَغُر. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والجمهور على أنه صغائر الذنوب[١] وقال السعدي رحمه الله تعالى: هي الذنوب الصغار، التي لا يُصر صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد، المرة بعد المرة، على وجه الندرة والقلة[٢] وفي استثناء الصغائر ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ ما يدل على أن من اجتنب الكبائر من المؤمنين كَفَّرَ اللهُ عنه صغائر الذنوب، فضلا منه وكرماً. وهذا يفيد من حيث الأساليب: الأسلوب الشرطي، وأنه من الأساليب الدافعة والمشجعة على فعل الخيرات والتسابق إليها. مما يبين رحمة الله تعالى بالعباد فيما لا يتمكنون من التحرز منه، فيقع منهم على سبيل الندرة من الصغائر، ومن غير إصرار منهم عليها، فالإصرار على الصغائر يُحيلها إلى كبيرة، لأنه لم يبال بالعقوبة، ولم يبال بالحياء والخوف من الله تعالى. فاشتملت الآية الكريمة على تحفيز وتشجيع المؤمنين على ترك الكبائر، بأسلوب العطاء والمنح من المسامحة في اللمم.

ثم من رحمته سبحانه وتعالى أن قال بعد ذلك ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾ إن مغفرة الله تعالى تستوعب جميع الذنوب مهما كبرت إذا تاب العبد وأقلع عنها. فيفتح سبحانه وتعالى أبواب التوبة لمن ارتكب شيئاً من تلك الكبائر والفواحش واللمم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمن فعل ذلك ثم تاب[٣] وهذا من كرم الله تعالى أن يحفز ويدفع المذنب إلى الإقلاع عن ذنبه، بقبول توبته. بل أوردها تبارك وتعالى بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي يؤكد ما بعده. ثم أورد اسم الربوبية له عَزَّ وجل، مقترناً بضمير النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ التي تظهر منزلته صلى الله عليه وسلم، بتوجيه الخطاب له عليه الصلاة والسلام، والمؤمنون تبعاً له. ثم أضاف مغفرته عَزَّ وجل إلى السعة، والتي يتبين بها سعة ورحابة مغفرته سبحانه وتعالى لجميع التائبين، ولجميع الذنوب ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾ فنحمد الله تعالى على هذه النعمة العظيمة من المغفرة والرحمة، وقبول التوبة من التائبين. اللهم اغفر لنا وارحمنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن سبب سعة مغفرته لمن تاب، وذلك لعلمه بكم، وبالطبائع البشرية، وبحقائقكم، بل من دقة علمه عَزَّ وجل أنه يعلم أطوار حياتكم منذ أن أخرج أصل أبيكم آدم من الأرض إلى أطواركم وأنتم في بطون أمهاتكم، فلعلمه بكم، وبأطوار حياتكم، وضعفكم، جاء الدين بما يناسب ويعالج سيركم في

(١) الشوكاني، فتح القدير (١١٣/٥)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٢٨/٥)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٣٤/٧)

الحياة الدنيا. فقال تعالى ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ فربكم عَزَّ وجل هو الأعلم بكم وبطبائعكم وخصائصكم، ونوازعكم، فيعرف كيف يضع لها ما يناسبها من الإرشاد والتوجيه والحلول. فبدأ البيان بحصر معرفة الحقيقة الدقيقة لكم أيها الناس له وحده لا شريك له ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ هو أعلم بكم من أنفسكم، ومن كل شيء، فيعرف حقائقكم، ابتداء من النشأة الأولى ﴿ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ وهي أصل خَلْقِهِ تبارك وتعالى لأبينا آدم عليه الصلاة والسلام. بما يفيد ومدى ارتباطكم بالأرض، وما عليها، التي أنتم منها. ثم تدرج إلى بيان عمق معرفته بكم أيها الناس حين أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ فيعلم ربكم بكم قبل اكتمال تكوينكم، حينما كنتم ﴿ أَجِنَّةٌ ﴾ وهو جمع جنين. والجنين هو الولد حين يكون في بطن أمه. وفي تخصيص المعرفة وهو في بطن أمه ما يدل على عمق ودقة المعرفة، بأطوار خلقه، وحياته، وما سيكون عليه. في حين أن الأم التي تحمله في بطنها لا تعرف عن حاله شيئاً، وكذلك الجنين لا يعرف عن نفسه شيئاً. مما يبين عظيم علم ربكم، وعظيم جهلكم وحاجتكم لعلم ربكم الذي يعلمكم إياه، ويوجهكم به. مما يفيد اتبعوا شريعة ربكم الخبير والعليم بكم.

وبالتالي ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فلا تمدحوا أنفسكم بالعلم والمعرفة والعمل، بل إنكم فقراء إلى ربكم في كل شيء، حتى في معرفتكم لأنفسكم، ولمغفرته لكم عَزَّ وجل. ولذلك لا تزكوا أنفسكم بالاستقامة، وكمال الامتثال، مما يستوجب منكم كثرة التوبة والاستغفار. والأخذ بما أمركم به ربكم أخذ المحتاج والفقير إليه، وأن تتركوا وتجتنبوا ما نهاكم عنه. فربكم وحده ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ فإن الله تعالى هو أعلم وأعرف بمن يتقيه ويخافه، ويجتنب المعاصي، من غير أن يُعلن ذلك الإنسان بنفسه. فربكم العليم الخبير هو أعلم بحقائقكم، وحقائق تقواكم، فلا تبرئوا نفوسكم من التقصير، فإنكم في أمس الحاجة لمغفرة ربكم، فتوبوا واستغفروا، وحافظوا على ذلك. مما يبين وجوب أن يتأدب المؤمن مع ربه، فلا يرى أنه على كمال الطاعة، وأنه الذي لا تحدث منه المعصية، بل التقصير والخطأ حاصل منكم، فأكثروا من التوبة والاستغفار. اللهم اغفر لنا وارحمنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم يا ربنا.

وهي قاعدة في معالجة الإنسان لنفسه ولغيره، فإن استشعر التزكية لنفسه بالطاعة، قال لنفسه ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ وإن رأى غيره يزكي نفسه بالطاعة والامتثال، نصحه وذكره بقوله تعالى

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ فهو توجيه عظيم في بناء النفس واستزادتها من الطاعة. وكذلك هو أدب عظيم من المؤمن مع ربه عَزَّ وجل، إذا امتثل به.

﴿ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾

بعد توجيه الله سبحانه وتعالى للعباد بما يجب من اجتناب الكبائر والفواحش، وبيان عظيم مغفرته جَلَّ جلاله، وعلمه عَزَّ وجل بالعباد حتى وهم في أطوار خلقهم في بطون أمهاتهم، وعظيم علمه بهم، بما لا يستدعي منهم تزكية ذواتهم، فنهاهم عن تزكية نفوسهم لعظيم علمه بهم تبارك وتعالى، ثم ينتقل التوجيه الكريم إلى شأن الكافرين، والرد على من تولى عن الحق بعد معرفته له. فقال تعالى ﴿ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴾ أفرأيت أيها الرسول هذا الذي عرف الحق منك ثم تولى مُعرضاً، فصد عما عَرَف من الحق. وقد ورد البيان بأسلوب التشويق الذي يدفع المتلقي إلى الرغبة في معرفة شأن هذا الذي تولى. فبدأ البيان الكريم بالسؤال الذي يحمل شد الانتباه بقوة التعجب من شأن هذا الذي عرف الحق ثم تولى في إعراض عنه، فقال تعالى ﴿ أَفَرَءَيۡتَ ﴾ لتشمل الرؤية البصرية، ورؤية البصيرة، بما يفيد كمال العلم بشأنه. وهو سؤال يستثير الْمُخَاطَبين عن معرفة حال هذا الإنسان، وتجنب ما وقع فيه، وأسباب توليه. وفي مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم بشأنه على اعتبار أنه عليه الصلاة والسلام هو صاحب الاجتهاد في دعوته، ودعوة غيره لدين الله تعالى. وبما يُظهر جهده عليه الصلاة والسلام في أداء الرسالة التي كلفه الله تعالى بها. وليتبين أنه مهما بلغ الداعية من إظهار الحجج، فإن هناك من لا يستجيب. فإنه على قدر رفعة مقام النبي صلى الله عليه وسلم، وما معه من الحجج والبينات، وما زوده الله تعالى به من الفصاحة والبيان، وما عُرِف من سيرته الكريمة إلا أن هناك من لا يستجيب للحق. ومن بلاغة البيان أنه بالرغم من أن الخطاب هو للنبي صلى الله عليه وسلم أصلاً، إلا أن بناء جملته تستوعب كل أحد من الْمُخَاطَبين. أفرأيت الذي تولى عن الرسول صلى الله عليه وسلم؟

وبالرغم من أن المتولين ليسوا بقليل إلا أنه حُدد بالمفرد ﴿ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴾ والذي يدل على شهرته في التولي، وشهرة وقوة إدراكه للحق، فهو ليس تولياً سهلاً. نقل ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، من أجل أن عاتبه بعض المشركين، وكان قد اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم على دينه. ثم إن الذي عاتبه ضَمِنَ له إن هو أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب

الآخرة، ففعل، فأعطاه شيئاً. فقال: زدني. فتعاسرا، حتى أعطاه شيئاً، وكتب له كتاباً[١] وقيل: أنه النضر بن الحارث. وقيل: أنه أبو جهل. وقيل: أنه العاص بن وائل[٢] ويماثل ذلك ما قاله أبو الوليد، عتبة ابن ربيعة لقومه: أني قد سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. ي ا معشر قريش! أطيعوني واجعلوها بي، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوناً لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم[٣] ومع هذا الاعتراف المؤكد لم يدخل في الإسلام، متولياً عنه، وذلك مجاراة لكبراء قومه. فهو مثال للإسراف، برد الحق الذي أيقنوه بلا شك ولا ريب، بل عرفوه جازمين به أنه من عند الله عَزَّ وجل.

ثم يصف تبارك وتعالى أفعال هذا الذي تولى، حيث يقول عَزَّ وجل ﴿ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴾ أعطى من ماله القليل، ثم توقف عن العطاء، فقطع معروفه. وقد وصف توقفه عن العطاء بدلالة معنى ﴿ وَأَكۡدَىٰٓ ﴾ الذي يعني: القطع والتوقف التام. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: قطع عطيته وأمسك. وذكر أنها تعني الصلابة: كالصخرة[٤] أي: كالصخرة التي تواجه من يحفر حفرة، فيمسك عن الحفر لقوتها، وعدم استطاعته إزالتها، فتوقف توقفاً تاماً. لأنه لا يستطيع كسرها، فوقف أمامها عاجزاً، وهو كذلك شأن الذي ﴿ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴾ فإنه وقف وتصلب في الامتناع عن العطاء، كمن واجهته صخرة. على الرغم من أنه لم يعط إلا القليل، فلم يكن عطاؤه بذلك العطاء الكبير. بما يفيد اليأس من أن يزيد في العطاء على ما أعطي.

ومن بلاغة البيان اتساع واحتواء دلالة منع العطاء لجميع مفرداته وأنواعه، سواء كان مالاً، أو إعانة، أو اتباعاً، أو معروفاً بالقول، أو غير ذلك من أنواع العطاء. فقد ورد في دلالتها أقوالاً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أطاع قليلاً ثم قطعه، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة وقتادة[٥] وقيل: أعطى قليلاً من نفسه بالاستماع، ثم أكدى بالانقطاع. قاله مجاهد. وقيل: أعطى قليلاً من ماله ثم منع، قاله الضحاك. وقيل: أعطى قليلاً من الخير بلسانه ثم قطع، قاله مقاتل[٦] لتستوعب بذلك جميع المذكورين وغيرهم. فاستوعبت جميع

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٧١-٧٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢٣٥)

(٣) ابن هشام السيرة النبوية (١/٣١٣-٣١٤)

(٤) الزمخشري، الكشاف (٤/٤٢٥)

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢٧٦)

(٦) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢٣٦)

الحالات التي واجهها النبي صلى الله عليه وسلم بثلاث كلمات ﴿ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴾ ليتبين الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم الذي يعجز عنه جميع الخلائق ولو اجتمعوا.

وكذلك من الفوائد لهذه الآية الكريمة الشارحة والمبينة لقوة صلابة قلوب بعض العباد، ما يبين أن بعض القلوب تقسوا أحياناً فتكون كالحجارة. كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ ﴾ فالقلب عندما يقسو وتشتد قساوته فإنه لا يستجيب، بل تصبح شدة قساوته أعظم من شدة قسوة الحجارة، بل إن الحجارة أكثر استجابة من هذا القلب البشري إذا صار قاسياً. مما يبين أهمية تعاهد القلوب بما يروضها، وذلك بكثرة الطاعة لله تعالى، وسؤاله الهداية والتوفيق، والرحمة، والعطاء والسخاء.

ثم يخبر الله تعالى عن تمادي هذا الذي تولى بسؤال استنكار عن حاله الذي هو عليه، فقال تعالى ﴿ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾ هل بلغ بهذا الذي تولى عن الرشد والحق، وأكدى بعد أن أعطى، أكان عنده علم الغيب، فعلم بالغيب عما يعطي بأنه سينتهي؟ بما يفيد جرأة حكمه على قراره الذي اتخذه بالمنع القطعي، فأكدى. فهو استفهام نفي وإنكار لحاله وتصرفه الذي بلغ منه الشأن أن جعل من نفسه كمن اطلع على الغيب. وكذلك تشمل معنى جرأة قبول ضمان من ضمن له أن يتحمل عنه عذاب الآخرة، مقابل شيئاً من المال. قال الطبري رحمه الله تعالى: أعند هذا الذي ضمن له صاحبه أن يتحمل عنه عذاب الله تعالى في الآخرة علم الغيب، فهو يرى حقيقة قوله، ووفائه بما وعده[١] وقال الفراء رحمه الله تعالى: أي: أعنده علم الغيب فهو يرى حاله في الآخرة؟ وقال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: فهو يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة وغيرها؟[٢] هل بلغ به من تعديه في تصرفه وكأن علم الغيب عنده مكشوف له، بأن يتحمل غيره عنه شأن الآخرة؟ وكذلك امتناعه عن العطاء؟ فإن الأمر والشأن ليس كذلك. فلا يتحمل أحد وزر أحد. كما أن إمساكه للمعروف والمال والبر، ليس مبنياً على علمه بالغيب. مما يعلم المؤمن أن يدرك بأن أوزاره لا يتحملها عنه أحد، وأن عليه أن يتوكل على الله تعالى في نوع ما يعطي، فإن العوض من الله تعالى، وأن الإنسان لا يعلم ما عند الله تعالى مقابل بذل المعروف من المال أو الصدقة أو غير ذلك من العطاء.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى ما اشتهر من التوراة التي أنزلت على نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام. فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ ألم يأته العلم والخبر بما جاء في التوراة التي أنزلناها

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٤/٢٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٣٦/٧)

على رسولنا موسى عليه السلام. ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾ وكذلك رسولنا إبراهيم الذي اتصف بالوفاء التام في إبلاغ ما كلفناه به من الرسالة. فهي دلالة قد استوفت جميع الوفاء والتزكية، بما يفيد عظيم المدح والثناء على رسول الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وخُصَّت صحف هذين النبيين بالذكر لأنها كانت أعم معرفة عن غيرها من الكتب. وتقديم صحف موسى عليه الصلاة والسلام باعتبارها أحدث وأجد ما وصل إليهم.

ثم ذكر تبارك وتعالى ما تضمنته تلك الصحف، فقال تعالى ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾ فلا تأخذ كل نفس بإثم غيرها. فلا تحمل النفوس إلا ما اكتسبت من الإثم، فلا تحمل عن غيرها آثامهم. ثم يؤكد ذلك تبارك وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ فليس للإنسان إلا جزاء سعيه، فكل مأخوذ بما كان منه. إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فيلقاه أمامه في الآخرة. ثم يزداد الإيضاح والبيان بالتأكيد. فقال تعالى ﴿ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴾ وأن هذا السعي الذي كان من العبد في الدنيا، سوف يراه في الآخرة في ميزان أعماله. بما يفيد الأهمية البالغة لأن يدرك العباد هذه الحقائق. وقد ورد في الحديث: أن الغادر يُرفع له لواء يوم القيامة. يُقال هذه غدرة فلان بن فلان[1] فإن دلالة قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴾ تُثبت رؤية الأعمال، ولله تعالى كمال القدرة في العرض، كما ورد عن رفع لواء من غدر.

ثم أبان وأظهر سبحانه وتعالى النتيجة بالجزاء. فقال جَلَّ شأنه ﴿ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴾ ثم يوفيه سبحانه وتعالى ما يستحقه من الجزاء الأكمل والأتم. فلا يزيد عليه إثماً، ولا يُنقص له شيئاً من حسناته. ليتبين كمال عدل الله تعالى. وأن كل إنسان له حسناته، وعليه سيئاته.

ثم يخبر جَلَّ جلاله عن نهاية المطاف للعباد، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾ وإن إلى ربك أيها الرسول مرجع العباد جميعاً. فمنتهى الدنيا والعباد إليه عَزَّ وجل، برجوع العباد يوم القيامة إلى ربك تبارك وتعالى، حتى يُوَفِّي كل إنسان بما يناسبه من الجزاء الأوفى، والأكمل والأتم. بما يفيد التعليم بأن منتهى الدنيا إلى الله تعالى، والإخبار بما هو قادم عليه هذا الإنسان، وبما يفيد كذلك الإنذار للمسيء، والترغيب للمؤمن بأن موعده عند الله تعالى. وأن على الإنسان أن ينشغل لذلك اليوم. وأن يزيل من عقله وفكره المفاهيم التي لا أساس لها في الدين. وهذا البيان هو من كمال وتمام فضل الله تعالى على العباد، بأن أظهر وأوضح لهم طريق الحق، وأزال المفاهيم الخاطئة التي ليس لها في الدين حقيقة. ومن دقائق السياق أن توجه البيان للرسول

---

(١) مسلم، صحيح مسلم. برقم (١٧٣٥)

صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ رفعة لمقام النبي صلى الله عليه وسلم، بما يفيد الإنذار لمن عاند الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن مصيره ومصير جميع العباد إلينا.

وفي قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ قوة دافعة للطاعة، وعلاج للإنسان المؤمن في كل أحواله، فهي دافعة للمؤمن بمعرفته لنهاية الطريق ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ ومعرفته بزوال الدنيا ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ وعلاج لكل شدة يقابلها المؤمن، بأنها ستنتهي وتزول، لأن ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ وكذلك علاج وتهذيب لما هو فيه الإنسان من النعمة ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ فحافظ عليها، واعمرها بما أمر الله تعالى فيها. فإنها ضابطة للسلوك، ودافعة للخير، ومسلية للمصائب والأحزان، ومعالجة لكل ما يجد المرء في حياته.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن
نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾
وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾
وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ
﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا
تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ ﴾

بعد أن أوضح تبارك وتعالى كمال عدله، بأن ليس للإنسان إلا جزاء سعيه، وأن كل أحد مأخوذ بما كان منه. وأن النفوس لا تحمل عن بعضها أوزار بعض. وأن مُنتهى الدنيا والعباد إليه سبحانه وتعالى، وذلك بالرجوع إليه جَلَّ جلاله يوم القيامة، حتى يُوَفِّي كل إنسان بالجزاء الأوفى. ثم بعد أن أظهر عدله وتنظيمه ونظامه البديع لما خلق عَزَّ وجل ينتقل السياق إلى بيان وجوب الاعتبار بأحوال الإنسان في ذاته من خلال الاعتبار بأدق عواطفه من السرور والبكاء، فقال تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ فربكم هو الذي أوجد أسباب الضحك، وأسباب البكاء، وهو الذي زودكم بالقدرة على الضحك والقدرة على البكاء، وأنشأ فيكم دواعي ذلك بهذه المشاعر، بحيث يضحك العبد بقدرة الله تعالى عندما يرى ما يضحكه من الأسباب، ويبكي عندما يجد أسباب البكاء، بما يفيد: ولو شاء ربكم عَزَّ وجل لما جعل هذه المشاعر تظهر من خلال الضحك والبكاء، ليحصل التفاعل بين الناس بتلك المظاهر المعبرة عن المشاعر الداخلية، إذ لولا الضحك والبكاء لما عرف الغير

مشاعر غيره من الفرح والحزن. ولأصبحت حبيسة في النفوس. فأطلقها ربكم في مشاعركم الظاهرة، والمعبرة عن مشاعركم الباطنة. مما يستوجب منكم قوة التفكير والتأمل فيما يعطيكم ذلك من قوة الاستدلال بأن الله تعالى عظيم في قدرته، وعظيم في تدبيره، وعظيم في صنعه. وبالتالي يستوجب منكم ذلك الإيمان بكل ما جاءكم به الرسول صلى الله عليه وسلم، من توحيده بالعبادة، والإيمان بالبعث بعد الموت، والحساب، والجزاء، والجنة والنار. وأن تشكروا ربكم على دقائق إنعامه.

ومن بديع البيان في تسلسله وتدرجه أن ورد الانتقال إلى التدبر في كمال آياته في الإنسان ذاته بعد أن تقدمها الاعتبار في تنظيم حقوق الإنسان عند الله تعالى بعدله، بحيث لا تتحمل النفوس عن غيرها ذنوبها، وأن مرجع العباد يوم القيامة إلى ربهم عَزَّ وجل للحساب والجزاء. فهو تدرج في غاية الإبداع. وكذلك من دقائق السياق ما أفاده ضمير ﴿ هُوَ ﴾ في قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴾ الذي أفاد حصر هذا الصنيع له سبحانه وتعالى، وليس باختراع الإنسان له. ولذلك قد يضحك وقد يبكي الإنسان دون أن يتحكم في ذلك، فينطلق ضاحكاً أو باكياً من أثر ما أصابه. فأسند سبحانه وتعالى الإضحاك والإبكاء له عَزَّ وجل ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴾ لأنه هو خالق هذه القدرة العجيبة في الإنسان. كما تصدر البيان نون التوكيد الملتحقة بضمير الجلالة ﴿ وَأَنَّهُۥ ﴾ والذي تلاه الضمير ﴿ هُوَ ﴾ العائد على الله جَلَّ جلاله. لإفادة التأكيد مع الحصر لهذا الصنيع أنه من ربكم عَزَّ وجل، الذي يستوجب منكم التأمل والتدبر، وما يتبعه من الشكر والطاعة والامتثال.

ثم ينتقل التدرج البياني والاستدلالي إلى الحياة والموت. فقال تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴾ وأن من قدرة ربكم وسلطانه وحكمته في تدبير شؤون خلقه أنه هو لا غيره الذي يُميت من حان أجله. وكذلك هو الذي يُحيي الموتى ببعثهم بعد فنائهم. فهو المنفرد بالإيجاد، وتحديد الأعمار، والآجال، وإحيائهم بالبعث بعد الموت. بما يفيد أن دلالة الإيجاد، ودلالة الآجال، تُثبت كمال القدرة على البعث بعد الموت. فإنها آيات لمن أراد أن يعتبر فيهتدي، ويؤمن.

ثم ينتقل البيان إلى إيضاح عجائب قدرته جَلَّ جلاله في التجانس والتكامل بين الذكر والأنثى، فقال تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾ فمن عظيم قدرة ربكم سبحانه وتعالى أنه خلق الذكر وخلق الأنثى، ليكون كل واحد منهما زوجاً للآخر، فالذكر زوج للأنثى، والأنثى زوج للذكر. وهذا يشمل جنس الإنسان، وينطبق على الحيوان. وهذا التجانس التكاملي بين الذكر والأنثى آية ظاهرة لمن تمعن فيها. إذ تدل على عظيم تدبيره واختراعه سبحانه وتعالى. بما يفيد ويبين كمال قدرته التي لا حدود لها. مما يستوجب على العباد توحيد ربهم عَزَّ في علاه، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والإيمان بكل ما أخبرهم به. ومن ذلك البعث والنشور، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

ثم أوضح تبارك وتعالى المصدر السببي في خلق الذكر والأنثى، بأنها ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ فبالرغم من أن مكوناتها واحدة إلا أنه بقدرته عَزَّ وجل أخرج من هذه النطفة الذكر والأنثى. فكلاهما من النطفة التي هي المني الذي يَصبُّ في الرحم ﴿ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ إذا تدفق المني في الرحم. وكما أنه هو أنشأ هذه النشأة الأولى من النطفة حين تتدفق في الرحم فإنه كذلك يعيد الإنسان إلى نشأته الأولى بعد موته، فقال تعالى ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ فكما أنه أنشأكم سبحانه وتعالى ابتداء، فكذلك على ربك أن يُنشئ الإنسان مرة أخرى عند البعث يوم القامة. فالقدرة على النشأة الأولى تدل على كمال القدرة على النشأة الآخرة. فأين وجه الامتناع؟ وهذا من أساليب القياس التي يستخدمها القرآن لإظهار القدرة على ما غاب عن الناس بالقياس على ما يشاهدون. وهو أسلوب في التعليم الذي يعتني بالعلم والعقل، وغرس الحقائق والإيمان بما أخبر به سبحانه وتعالى.

ثم ينتقل التوجيه الكريم إلى إظهار كمال الامتنان على العباد بالأرزاق والإنعام العظيم الذي يتقلب فيه جنس الإنسان. فقال تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ فربكم هو الذي أغدق على العباد بما أغناهم من الأرزاق، من الحيوان والنبات بالإيجاد والتكوين. وما جعله من المعادن، وما علمكم من المهارات، ومن التجارة، والصناعة، وجميع أنواع الحرف، مما يفيد ويبين عظيم إنعامه عَزَّ وجل، وكذلك عظيم دلالة ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ ﴾ التي أضاف إليها قوله تعالى ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى، أي: مَلَّك عباده المال، وجعله لهم قنية، مقيماً عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه. فهذا تمام النعمة عليهم[١] وذكر القرطبي رحمه الله تعالى أقوالاً تدل على أنها بمعنى أنه جعل له معرفة بالادخار. فقال: جعل لكم قنية تقتنونها، وأنها تأتي بمعنى: أخدم، وأرضى، وأعطاه فأغناه حتى أرضاه بما أعطاه[٢] وفي تفسير الجلالين، أي: أعطى المال الْمُتَّخَذ قنية[٣] أي: ادخاراً. بما يفيد أنه سبحانه وتعالى فوق هذا الغنى فقد أقنى، بأن جعل لهم قنية مما يدخرون. وهذا من تمام الإنعام. إذ تفضل على العباد بالإيجاد والتعليم لهم بما يُغنون به أنفسهم من الادخار، حتى تميزوا بهذا الفهم والإدراك عن غيرهم. مما يستثير بهذا التعليم أذهان الْمُخَاطَبين نحو عظيم تدبيره عَزَّ وجل، الذي يتطلب منهم كمال طاعته كما أمر سبحانه وتعالى. وأن يفكروا في كمال تدبيره العظيم سبحانه وتعالى. فله الحمد والشكر على إنعامه.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٧٧/٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٧/١٧)

(٣) جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، ص (٥٢٨)

ثم يلفت سبحانه وتعالى انتباه العباد إلى كوكب الشِّعْرَى، ليستثير عقولهم نحو بديع خلقه. فقال تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴾ وأن ربكم هو رب هذا الكوكب المضيء في السماء، الذي ترونه وتشاهدونه. قال القرطبي رحمه الله تعالى: الشعرى: الكوكب المضيء، الذي يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدة الحر[١] وبالرغم من أن الله تعالى رب كل شيء، ولكن خصه من بين بقية الكواكب، لأن بعض العرب كانوا يعبدونه. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: يعني بالشعرى النجم الذي يُسَمَّى هذا الاسم، وهو نجم كان بعض أهل الجاهلية يعبده من دون الله[٢] قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والإتيان بضمير الفصل ﴿ هُوَ ﴾ يفيد قصر مربوبية نجم الشعرى على الله تعالى، وذلك كناية عن كونه رب ما يعتقدون أنه من تصرفات الشعرى، أي: هو رب تلك الآثار، ومُقَدّرها، وليست الشعرى ربة تلك الآثار المسندة إليها في مزاعمهم[٣] فعالج البيان بالتخصيص ولفت الانتباه لما هم عليه من الانحراف في العبودية، وبما يفيد: فكيف تعبدون مخلوقاً من دون الخالق لكم ولهذا الكوكب، ولجميع الكون؟ فقد أرشدهم سبحانه وتعالى بالبيان الحكيم الذي يستثير العقول نحو موقع حقيقة الخطأ والصواب، وإيقاظ العقول، والفكر والتفكر فيما هم عليه من عظيم الكفر مما يبين قوة منهج الإسلام العلمي، الذي يقوم على الحقائق، والإرشاد للناس بالحق والحقائق. بما يعلم المؤمن منهجية الاستدلال للتعليم والإرشاد.

وبعد إظهار الدلائل على ربوبيته وألوهيته تبارك وتعالى في الآفاق والأنفس، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو عَزَّ وجل ينتقل البيان الكريم إلى عقوبته لمن كذب رسوله صلى الله عليه وسلم، فلفت انتباههم إلى عقوبته سبحانه وتعالى بقوم عاد، وثمود، وقوم نوح، والمؤتفكة، فقال تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ فربكم هو الذي بقدرته عاقب قوم عاد جزاء لتكذيبهم برسولهم هود عليه السلام. وكانوا من أشد الناس وأقواهم، وأعتاهم في تمردهم. وسُمِّيت بالأولى لتقدمها من حيث الزمن. قال القرطبي رحمه الله تعالى: سماها الأولى لأنهم كانوا من قبل ثمود. وقال ابن زيد: قيل لها عاد الأولى لأنها أول أمة أُهلكت بعد نوح عليه السلام. وقال ابن إسحاق: هما عادان. فالأولى أهلكت بالريح الصرصر، ثم كانت الأخرى، فأُهلكت بالصيحة[٤] ثم ذكر تبارك وتعالى قوم ثمود، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴾ أي أهلك قوم ثمود الذين كذبوا رسولهم صالح عليه الصلاة والسلام، وما أبقى منهم أحداً، إذ استأصلهم عَزَّ وجل بقوة العذاب الذي حاق بهم. وهم الذين عقروا الناقة بعد أن أخرجها الله تعالى لهم من جبل، وذلك بناء على طلبهم، واشتراطهم على أنفسهم بأن يؤمنوا،

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٨/١٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨٥/٢٢)

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢١/١١)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٨/١٧)

وقيل: أخرجها من صخرة صماء منفردة في ناحية الحجر، يُقال لها: الكاثبة، فلما خرجت الناقة على ما طلبوا، عقروها. فنزل عليهم ما يستحقون من العذاب.

ثم ذكر تبارك وتعالى قوم نوح، فقال عزَّ وجل ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ وكذلك أهلكنا من قبلهم قوم نوح الذين كانوا قبل عاد وثمود. وفي تأخير قوم نوح عن ترتيبهم، لإفادة التعظيم والتكثير. فليس هؤلاء الأقوام المذكورة فقط هم الذين شأنهم شأن التواصي بالكفر، بل كذلك قبلهم قوم نوح. وبما يفيد أنه من أول المرسلين الذي هو نوح عليه الصلاة والسلام، ومروراً ببقية الرُّسُل، ثم إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، وهم يواجهون التكذيب من غيرهم لهم. كما أن في ذلك التأخير لفت الانتباه إليهم بصيغة إعادة ترتيبهم بإضافة ﴿قَبْلُ﴾ لكونهم أول الأقوام الهالكين. فإن في جميع من ذكرهم الله تعالى موعظة بهم لغيرهم، لإفادة العبرة بمن سبق. وكذلك لبيان المزيد من التخصيص والتفصيل لشأنهم. فاتعظوا أيها الناس، وآمنوا برسولكم محمد صلى الله عليه وسلم، واحذروا من عذاب الله تعالى وسخطه.

وقد وصفهم الله تعالى بقوله عزَّ وجل ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ فقد اتصفوا بصفتين كبيرتين من البطر والاستكبار: الصفة الأولى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ ﴾ إن قوم نوح كانوا ظالمين بشركهم، وبمحاربتهم لرسول الله تعالى نوح عليه السلام، الذي لبث فيهم مدة طويلة، إذ بلغت ألف سنة إلا خمسين عاماً، فكانوا يسعون لتحقيق الفساد، ويواجهون رسولهم بالسخرية والاستهزاء. فهؤلاء ظلموا علاقتهم بربهم من خلال شركهم، وظلموا رسولهم بتكذيبه، وظلموا أنفسهم بخسارتها للآخرة، وظلموا غيرهم بنشرهم الشرك، وترغيبهم لغيرهم فيه، فاستجمعوا الظلم من كل وجه. فالظالمين بالشرك ليس لهم إلا العذاب. مما يفيد أن الشرك ظلم عظيم، حتى وإن عمل المشرك عملاً صالحاً، فإن الشرك يهدمه ويحبطه، فلا قيمة ولا وزن له عند الله تعالى، لأنه ترك ما هو أعظم، وهو الإيمان والتوحيد، وقدم هواه على أمر الله تعالى وهديه، فعمل بهواه وبقصور عقله وفكره، مخالفاً لمراد الله تعالى وشرعه.

والصفة الثانية: أنهم ﴿وَأَطْغَىٰ ﴾ أكثر تجاوزاً، بما يفيد المبالغة في ظلمهم وطغيانهم إلى حد تجاوزهم غيرهم من الأمم التي بعدهم، فيكون فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بما واجهه نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام من قومه الذين كانوا أكثر وأشد تجاوزاً في التمرد. وقد ورد البيان عن ظلمهم وطغيانهم عاماً ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ ليدل على أنهم أظلم وأطغى من جميع أهل الكفر، بما يفيد المبالغة في ظلمهم وطغيانهم إلى حد الذي تجاوزوا به غيرهم من الأمم التالية لهم، فهم أظلم من عاد وثمود، ومن مشركي العرب. لأن نوح

عليه الصلاة والسلام مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً. فكانت مدة طويلة. فناسب التخصيص بالوصف حالهم. وهذا من دقة البيان في القرآن الكريم.

ثم عطف سبحانه وتعالى على ما سبق من الأمم الهالكة المؤتفكة، فقال تعالى ﴿ **وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ** ﴾ وهي قرى قوم لوط، وقد أهلكهم الله تعالى بما أمطر عليهم من الحجارة، وسُمِّيت مؤتفكات لأنها انقلبت بهم حتى صار عاليها سافلها، والائتفاك: الانقلاب[١] قال مجاهد رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿ **أَهْوَىٰ** ﴾ أهواها جبريل. رفعها إلى السماء ثم أهواها[٢] أي: أسقطها من السماء، إذ تم اقتلاعها من الأرض، ثم هوى بها من السماء، فَقُلِبت. وقد سماها الله تعالى بالمؤتفكة إظهاراً لقوة العذاب الذي انقلبت به قراهم حتى صار عاليها سافلها. وأكد سبحانه وتعالى الانقلاب لها بالإسقاط ﴿ **أَهْوَىٰ** ﴾ الذي هو السقوط، فكان العذاب بالانقلاب مع قوة الارتفاع ثم الارتطام. وفي إفراد قوم لوط بالتأخير عن عاد وثمود لإظهار عظيم ما كان منهم.

فتلك الأقوام قد تحقق فيها العذاب، فنالها من العذاب العظيم ما نالها، فقال جَلَّ جلاله بأسلوب التهويل والتعظيم لما أصابهم به ﴿ **فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ** ﴾ فأصابها العذب المهين الشديد، والدمار الشامل، والنكاية المخزية. فقد غمرهم من العذاب ما غمرهم، إذ تلاطم بهم من كل ناحية وجهة، فدلالة ﴿ **فَغَشَّىٰهَا** ﴾ تفيد كمال إحاطة العذاب بهم من كل جهة. وفي جملة ﴿ **فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ** ﴾ ما يفيد التعظيم والتهويل لما غشيهم، بأن أصبح العذاب من فوقهم ومن أسفل منهم. بل ومن أوجه التهويل إضافة دلالة ﴿ **مَا غَشَّىٰ** ﴾ إلى الفعل الأصلي، وهو ﴿ **فَغَشَّىٰهَا** ﴾ لإفادة تهويل عظمة شدة العذاب. ومن بلاغة البيان أنها جملة قليلة الألفاظ، عظيمة المعنى. وفي ذلك إيعاز لمشركي قريش، ولغيرهم، ولمن بعدهم، بما يفيد خطورة الشرك، وعموم الكفر، الذي يظلم الإنسان به نفسه، فيوردها الخزي والعذاب المهين.

ثم يزداد اللوم والعتاب على المكذبين بالرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ** ﴾ فبأي هذه النعم تشكك يا أيها الإنسان، فالآلاء من قوله تعالى ﴿ **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ** ﴾ تعني الإنعام، فإن نعم الله تعالى واضحة، بما يوجب الإيمان والتصديق. ويشمل الإنعام كذلك جميع الآيات والبراهين، لأنها نعمة من الله تعالى، بأن يعظ بها العباد حتى يخرجوا من الكفر إلى الإيمان. وبالتالي يشمل معناها فبأي هذه

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٣٨٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٩٠)

النذر والآيات والحجج التي أنذرناكم بها تكذبون؟ سؤال تقريري ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ ومعنى ﴿ تَتَمَارَىٰ ﴾ تشك. بما يفيد أن جميع ما أنعمنا به عليكم من النعم، ومنها أن أنذرناكم بالآيات، والأحداث، والعبر والمواعظ كافية، وليس فيها ما يمكن لأحد أن ينكرها بدليل. بل إنها مُوجبة للتصديق بها. فبأي هذه النعم تتشكك يا أيها الإنسان. فهو سؤال يستثير العقل والفكر بأن يمعن هذا الإنسان في كثرة هذه الآلاء التي تحيط بالإنسان من نعم المعيشة، ونعم الدلالات، والعبر، والآيات الكونية وما أصاب الأمم، وما أنعم به سبحانه وتعالى في الأنفس، وما وهبها سبحانه وتعالى من القدرات. فجميعها تؤكد بأنه لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ هذا الرسول صلى الله عليه وسلم، وما جاءكم به هو ﴿ نَذِيرٌ ﴾ يحذركم مما أنتم عليه من الكفر والعصيان والتمرد على الحق. فدلالة ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ ﴾ بمعنى المنذر الذي يخبركم مما أنتم عليه، وما أنتم مقبلين عليه، ويبين لكم الحق والصواب. وهو من جنس ما أُنْذِرَت به الأمم السابقة ﴿ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ كما أرسلت الرسل من قبل إلى أقوامهم، فأنذركم محمد صلى الله عليه وسلم، كما أنذر من كان قبله من المرسلين. فعن قتادة رحمه الله تعالى، قال: أَنْذَرَ محمدٌ صلى الله عليه وسلم كما أنذرت الرسل من قبله[١] فلا غرابة من ذلك إذاً. بما يفيد: فلماذا إذاً لا تؤمنون به؟ وقد ساق لكم من النُّذُر ما قامت به الحجة.

ومن دقائق البيان في شموليته واستيعاب معانيه أن اسم الإشارة ﴿ هَٰذَا ﴾ عائد على الرسول صلى الله عليه وسلم وما أَنْذَرَ بِه، وكذلك يشمل ما سبق من الآيات الكريمة. فعن قتادة: أنه القرآن، نذير بما أَنْذَرَتْ به الكتب المتقدمة[٢] فتلك الآيات والحجج والبراهين التي ذكرناها لكم في القرآن هي إنذار لكم، مماثلة لما أنذرنا من كان قبلكم من الأمم السابقة. مما يفيد أن منهج الله تعالى واحد، وأن دينه واحد، وأنه بفضله وكرمه سبحانه وتعالى أقام الحجة على العباد السابقين واللاحقين، وبقي كتابه المنذر القرآن الكريم، وسيرة وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم تتوارث بين العباد، جيلاً بعد جيل، بحفظ الله تعالى لها من خلال تسخير عباده لخدمتها والعناية بها، ونشرها بين الناس، على مدار العصور والأزمان. وبقاؤها آية عظيمة لمن أراد الحق والاعتبار.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٩٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢٤٠)

ثم يُنذر الله تعالى العباد ببيان اقتراب يوم القيامة، فقال تعالى ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴾ اقتربت ودنت ﴿ ٱلْأَزِفَةُ ﴾ أي: الساعة، التي هي يوم القيامة. ومعنى ﴿ أَزِفَتِ ﴾ اقتربت. ومن ذلك قولهم: أزف الرحيل، أي: دنا واقترب. قال القرطبي رحمه الله تعالى: سماها ﴿ ٱلْأَزِفَةُ ﴾ لقرب قيامها عنده سبحانه وتعالى، كما قال عَزَّ وجل في سورة المعارج ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ٧ ﴾ وقيل: سماها ﴿ ٱلْأَزِفَةُ ﴾ لدنوها من الناس، وقربها منهم، ليستعدوا لها[١] وفي هذا إعلام وإخبار من الله تعالى بما يجب الحذر منه، وذلك بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والامتثال لما جاء عن الله تعالى. وهذا من رحمته جَلَّ في علاه، إذ يحذر العباد، وينذرهم، ويرشدهم بكل وجه، من أجل مصلحتهم. فالحمد لله رب العالمين على رحمته وعنايته.

ثم يخبر الله تعالى بأنه ليس لأحد من الخلق القدرة على كشف ومعرفة موعد يوم القيامة، فقال عَزَّ وجل ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ ليس للساعة ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ ليس لكشفها بالإخبار عنها إلا الله سبحانه وتعالى. مما يفيد حصر علمها لله عَزَّ وجل فقط. فهو الذي يكشف لكم عن علاماتها. كما أنه ليس لأحد من دون الله عَزَّ وجل أن يقدمها أو يؤخرها، أو يعرف موعدها تحديداً.

ثم ينكر اللهُ تعالى على من لم يتعظ بما أخبر وبين عَزَّ وجل، فقال جَلَّ شأنه ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ أفمن هذا القرآن العظيم، وما تضمنه من الآيات والنذر والمواعظ والعبر والأحكام ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ تتعجبون تعجب المنكر له، باستبعاد البعث والنشور والحساب والجزاء، والجنة والنار. وهو استفهام توبيخ لمن كذب وكفر. بما يفيد إن كان هذا شأن من سمع تلك الحجج والبراهين فلم يتعظ، ولم يأتمر، وينتهي بما في هذا القرآن العظيم من البيان والحجج فبأي شيء سيتعظ هذا الإنسان. فما بعد كلام الله تعالى للعباد أعظم بيان منه.

ثم وصف تماديهم في التعجب الذي استبعدوا به جميع ما جاءهم من عند ربهم سبحانه وتعالى، بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ تتعجبون، وتضحكون منه سخرية واستهزاء، ولا تبكون خوفاً من وعيده. بما يفيد أنهم في لهو عنه من قوة تماديهم. فلا يخافون ولا ينزجرون. فقد خالفتم ما تتأثر به النفوس المؤمنة التي تبكي من خشية الله تعالى، ومن مواعظ القرآن الكريم. مما يبين أن البكاء من خشية الله تعالى هو من سمة المؤمنين.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٩/١٧)

ومن دقائق السياق البياني هي تلك العلاقة بين قوله تعالى فيما سبق من هذه السورة ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ وبين قوله تعالى ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ فهناك العلاقة التعبدية بين نعمة الضحك والبكاء، وبين استثمارها في التعبير عن الخشية من الله تعالى، فهؤلاء استثمروها في المعصية بالضحك والاستهزاء، بدلاً استثمارها في الخشية بالبكاء من خشية الله تعالى، وفي الفرح بنعمة الله تعالى، الذي يمثله حالات الضحك من الفرح والابتسامة ونحوها. فربكم هو الذي أوجد أسباب الضحك، وأسباب البكاء، وهو الذي زودكم بالقدرة على الضحك والقدرة على البكاء، وأنشأ فيكم دواعي ذلك بهذه المشاعر، بحيث يضحك بقدرة الله تعالى عندما يرى ما يُضحِكُه من الأسباب، وأنه يبكي عندما يجد أسباب البكاء، ومن ذلك الخشية من الله تعالى.

ثم يبين تبارك وتعالى حالهم وهم يضحكون ولا يبكون، بأنهم في لهو وإعراض، فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾ أي: وأنتم في لهو معرضون، استكباراً وتعالياً. فتضحكون ولا تبكون فيما أنتم فيه من اللهو والإعراض. لأن السُّمُود يفيد دلالة الغفلة بالتشاغل، فيتشاغلون عنه بعموم اللهوي، ومنه الغناء استهزاء، واستبعاداً. فقد ورد في دلالات ﴿ سَٰمِدُونَ ﴾ خمسة أقوال، لا تعارض بينها، إذ جميعها داخلة في عدم المبالاة والاهتمام. فأحدها: بمعنى: لاهون. والثاني: معرضون. والثالث: أنه الغناء. وهي لغة يمانية، يقولون: أَسْمِد لنا، أي: تَغَنَّ لنا. والرابع: أي: غافلون. والخامس: أي: أشرون بَطِرُون[1] وجميع تلك الدلالات متظافرة، ولا تعارض بينها. بما يبين غزارة ألفاظ القرآن العظيم بمعانيه التي تحملها كلماته الجليلة، فتستوفي كمال المراد بأجزل البيان وأبلغه. فإن حالهم أنهم: لاهون ومعرضون، ومنشغلون بالغناء عن الحق، وأنهم غافلون ومستبطرون.

ثم يختم الله تعالى سورة النجم بإرشاد المستكبرين بما يجب عليهم من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وفق ما جاء به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴾ فأتمروا بما جاءكم من الحق بالسجود لربكم وحده لا شريك له، شكراً وطاعة وخضوعاً وامتثالاً ﴿ وَٱعْبُدُواْ ﴾ أي: واعبدوا ربكم وحده لا شريك له دون غيره، ووفق ما شرع لكم من الدين.

ومن بلاغة بيان هذه الآية الخاتمة لسورة النجم أن ابتدأ السياق بالخاص الذي هو السجود، ثم عطف عليه العام، وهي عموم العبادة ﴿ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴾ فمن خضع لله تعالى عبده وحده لا شريك له. لأن في الأمر بالسجود ما يدل على أنه حقيقة الخشية والتذلل الذي يجب ألا يكون إلا لله تعالى، وإذا أفرد

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢٤٠)

العبد سجوده لله تعالى فقد دل على توحيده وخضوعه لربه عَزَّ في علاه، وهو يعطي دلالة الإخلاص لله تعالى في العبادة. ويدل على شرف السجود، الذي يشمل سجود الصلاة، وسجود التلاوة، وسجود الشكر. بل ويعني كذلك كمال الخضوع. فتخصيص السجود من بين جميع العبادات دلالة على فضله ومكانته عند الله تعالى، وأنه من شعائر التذلل لله عَزَّ في علاه. ثم بعد أن أفرد السجود بالأمر به، عَطَفَ عليه عموم العبادة ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ﴾ لتستوعب وتشمل جميع العبادات، من غير استثناء. والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأفعال والأقوال، والاعتقاد.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة النجم. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.